فلاح الجواهري

حُلمُ طائرٍ غَريبٌ

رواية

رواية

حُلمُ طائرٍ غريبْ

حُلمُ طائرٍ غريبْ

فلاح الجواهري

Falah Aljawahiri

Dream Of an Estrange Bird

لوحة الغلاف: فلاح الجواهري

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى – سنة ٢٠٢٢

ISBN: 978-9922—628-65-3

لا يسمح بإعادة طبع الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والنشر على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر عن رأي الدار

SUMER
Printing, Publishing&distribution

LUXEMBOURG- 2- c Crauthemerstrooss-
L- 3334- HELLANGE

+354671531017

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد: شارع المتنبي
مدخل جديد حسن باشا
هاتف: ٠٧٧١١٠٠٢٧٩٠ –
٠٧٧٠٠٤٩٢٥٦٧

حُلمُ طائرٍ عُريبْ

رواية

فلاح الجواهري

لطائرِ حُلمٍ غريبْ، لصديقي الذي
هاجرَ مع سربه، خالد احمد زكي
أهدي كتابي هذا

كان رصيف رسوّ (ميستراديس) مزدحماً بعربات باعة الأطعمة ونوتيّة المراكب والحمالين وأكداس البالات والبراميل والأكياس المعدة للشحن وذلك اللغط الكبير بمختلف اللهجات المحلية والأجنبية يلتف حول كل شيء، فيزيد الفوضى الغريبة بأجواء غير مفهومة مشوشة، لكنها لا تخلو من سحر البهجة والغموض ومداخل الإكتشاف الجديد.

ساعات الرسو غير قليلة، تستغرق النهار كله، ولكن الخوف من العوائق غير المحسوبة في أزقة وشوارع المدينة الكبيرة تقضي على روح المتعة عند الشاب-الصبي، ذو البدلة الأنيقة والرباط الحريري، في استكشاف المدينة الشهيرة.. .. إنها الإسكندرية لاغير.

" المهمة الأساسية: أولاً البحث عن مِحبرة.. المدينة ثانيا.. "..

الشوارع المحاذية للميناء تكثر فيه المطاعم وحوانيت التحف المصرية المقلّدة وباعة الملابس البلدية المحلية التقليدية وأكشاك للصحف والمجلات بينها أبنية فنادق متقادمة وبنسيونات.. لامحل لبيع القرطاسية على مسار طويل قرب الميناء..

_ يا مُعلّم!! تسمح تدلني من فضلك على محل لبيع القرطاسية؟

سألتُ اول عابر سبيل، رجل أسمر ضخم بقفطان وجلابية غامقتين وطرحة وطاقية مُزركَشة.. شارباه الكثان يغطيان كامل شفته العليا وجزءً من السفلى

_ كِرادسيّة أيهْ يا افندم؟.. كِرداسيّه يعني أيهْ بالمصري؟

_ يَعْني يا عَمْ، بِتاعْ وَرقْ وإلِامْ ودفاتر.. دَهْ أنا عْايزْ إزازَةْ حِبْرْ!

نظر من علٍ من بين شاربيه الكثين إلى الصبي الأنيق أدناه، وتردد برهة قبل أن يسأل:

_ دانْتَهْ نازل دِالوِكِيتْ من بواخر المينا؟

_ أيوهْ ياعمْ.

_ وعلى فِينْ الكَصد اِنشا الله؟

_ لندن.. للدراسة.

_ وُرايِحْ لبلادْ الخَواجاتْ وَحْديكْ؟

_ أيوهْ ياعمْ.

تمهّل قليلا قبل أن ينظر بإمعان إلى الشاب – الصبي المُهندم.. ثم التفت ونظر حواليه وكأنه يحاذر شيئا.. إبتسم وقال:

_ آه.. مَفهومْ يا افَندمْ.. بَسْ هِنا ما فِيشْ كَراديسْ في الشارع دَهْ.. وَرايَهَ وانْا حَا دِلّكْ!

بعد بضع خطوات في الشارع الذي كنا نسير فيه، إنعطف بخطوات كبيرة إلى زقاق غير وسيع.. أشار اليّ بأن أتبعه..

.. قطع مسافة غير قليلة قبل أن ينعطف إلى زقاق أضيق.. ثم إلى زقاق آخر أكثر ضيقا ببيوت متداعية تبدو وكأنها مهجورة..

.. بين الحين والآخر كان يدير رأسه ينظر إلى الخلف ليتأكد أنّي أسير خلفه ويكرر إشارته لي بالمتابعة..

خلال فترة أكثر من عشرة الدقائق التي قطعناها، كان يسير بخطى كبيرة عجلى وكانه يقطع الأزقة وحده، وأن الشخص الآخر الذي يسير خلفه لا علاقة له به.

.. كانت الأزقة الضيقة الأخيرة خالية من أيّ بشر أو أيّ مَعلَم للحياة، وكلما انعطفنا الى زقاق جديد، إزداد إقفارالمكان ووحشته.. لم نقابل جنس مخلوق واحد في العشر دقائق الأخيرة من الأزقة الأخيرة والتي تبدو وكأن آهلوها هجروها على عَجل بعد طاعون مفاجيء مرعب مميتْ..

" أين أنا؟!.. أيّ مخزن للقرطاسية في هذه المفازة القفراء الموحشة؟!!.. أهي وراء هذه الأبواب المكسّرة في البيوت الخربة!، أم في عتمة هذا الدهليز المليء بالنفايات.. أم خلف هذه الجدران المقشرة أحجار قواعدها بأحماض البول التي مُسحتْ بعضاً من الخط البدائي (البول هنا للحمير) "..

.. ازدادت رائحة البول العطنة.

.. تباطأتْ خطواتي وازدادت دقات قلبي وتسارعتْ، وأخذتُ أسمع ضجيجها

في أُذنيّ و تكاثفت غيمة الخوف الغريزية المجهولة..

.. " أيّ مَحلٍ قرطاسية في هذا المُوات الموحش!؟ "

.. تباطأتُ أكثر، ثم أكثر، لتصبح المسافة بيني وبين هذا (الطنطلْ) الصعيدي المرعب أكبر فأكبر..

ما أن انعطفَ في الزقاق التالي، حتى استدرت وركضت عائدا بين متاهة الأزقة الخالية وكأن الجن تطاردني ضاجّة صاخبة..

.. لم أعدْ أسمع إلا صخبا لا أعرف مصدره..

.. تضببتْ عيناي حتى أضحت غشاوة سرابية لا أميّز من خلالها إلا مصدر الضياء..

.. أركضُ مشدوهاً سعياً وراء فسحة ضياء أكبر لزقاق أكبر.. لزقاق يقود إلى الشارع..

.. أصبحْ الشارع الذي كنت أسعى إلى إيجاده هدفا بعيد المنال.. هدف نجاة.. هدف حياة.. قمة امنية لا أعذب منها في الكون..

.. عليّ أن أتشبّث بكل ما لديّ من عزم الخوف والهرب للوصول إليه.. الشارع هو الضوء، الشارع هو الناس، الشارع هو الأمل، الشارع هو الحياة.. .. لاشيء آخر أريد في هذه الدنيا إلا الشارع..

.. " اركضْ!.. لا تلتفتْ! "..

.. " اركضْ! وإن أنقطع النَفَس! "..

.. " اركضْ! إلى أيّة فسحة أكبر للنور!. ".

.. " نور أكبر، زقاق أكبر.. نور أكبر، أمل أكبر!! "

.. " اركضْ اشد واسرعْ!! "..

.. ها هي فتحة ضياء تلوح من بعيد عند آخر الزقاق الوسيع تطّل من خلالها عمارات الشارع..

.. هنالك فَرد.. هنالك فرد آخر ألمحه يسير من بعيد على الرصيف..

.. أُريد ان أصرخ مستنجدا وانا أركض طائرا فيختنق صوتي.

.. أصل الشارع أخيرا.

.. أستند بذراعيّ على جدار مبنى في ركن الزقاق من الشارع.. بصعوبة بالغة أستطيع أخيرا من أن أسحب نَفَساً عميقا أُحسه يحرق زوري وصدري.. أظل زمنا مستنداً على الجدار.. أجلس على عتبة بناية مجاورة، أستعيد بصري وأنفاسي.

.. أنظر إلى روعة ما حولي..

.. الشارع الضيق بأبنيته العتيقة مهترئة الصباغ..

.. أكشاك خشبية تبيع قلائد زجاجية ومسابح رخيصة ومناديل ملوّنة..

حوانيت صغيرة بعضها إستُبدل زجاج نوافذها المهشمة بصور أم كلثوم وهند رستم.. مطاعم بلدية تفوح منها عطور عذبة شهية..

.. رائحة فول وطعمية وكُشري!!

.. أكوام قمامة صغيرة ملوّنة متناثرة هنا وهناك تَنكشُ فيها النوارس البيضاء المتلامعة بنشاط وعبث مرح..

.. بين السابلة تسرح بعض الكلاب السائبة تتقافز على بعضها لاعبة بين الحين والآخر بنباحات مَرِحة أو كزكزات غضب مفتعل..

.. أفراد قلائل يمشون مسرعين أومتراخين بكسل على الأرصفة..

.. آخرون يعبرون الشارع من هذا الجانب للآخر بفوضى بديعة تمتزج متناغمة بتعرجات الحافلات المارة بينهم..

.. موسيقى أبواق السيارات المتعالية تتسابق في العزف..

يا لمتعة الأمان بين الصخب.. بين حشد الناس.. بين الفوضى.. بين عبث عناصر الحياة الحلوة..

أقف بهدوء مواجها أحد المارة (الأفندية):

_ يا فَنْدِمْ!! تِسمحْ تدِلِني من فضلك..

أتذكّرُ وأبتسم.. أعيد السؤال:

_ تِسمَحْ تِدلِني من فضلك على الشارع اللِيْ بِيوَصَّلْ للمِينا

***

-أنا جُانينْ.. جانين الحي اللاتيني.. رأيتك أما منشغلا في قراءة كتاب أو كتابة أوراقك المتناثرة أو تقف بعيدا عن شِلة أصحابك السوريين، سارحاً في العباب اللامتناهي.. وقدرت أنك لابد قرأتَ الحي اللاتيني..

إمرأة بسيطة الملبس، نحيفة، بوجه فيه شحوب وذبول، جاوزت الأربعين.. " أين منها من جانين الكتاب الساحرة.. "

-كنتُ في بيروت بدعوة من المؤلف، واصلت حديثها بابتسامة حزينة حائرة .. أنتَ مع بعثة الطلبة السوريين إلى فرنسا؟

-كلا، لست معهم، جماعة لطيفة تعرفت عليها فوق سطح السفينة، أنا من بغداد وفي مغامرة دراسية لا أعرف مسالكها في لندن.

_ قريبا سنمر بالقرب من ستروميلي، ذلك البركان الذي لا يتوقف هذه الأيام عن قذف حممه وشرره.. في مثل هذه الليلة الرائقة سترى مهرجاناً صاخبا من الألوان في السماء.

.. حين مررنا غير بعيد عنه، كانت الشِلة السورية تلتف حول جانين، وهي تتكيء سارحة بمنظر المهرجان الناري المتفجر متكئة على إفريز السفينة.. صخب المسافرين الآخرين المبهورين بالمنظر الفريد يجعل من الصعب تمييز الكلمات واللغات المنطوقة بها في اللغط.

***

ميناء بيريوس – أثينا، وعربات الشواء والباذنجان المقلي والجبنة والزيتون.. أخيرا ملجأي من الجوع ودوار البحر واستفراغ كل ما في معدتي من على إفريز السفينة المتأرجحة في الموج الصاخب.. منظر وجبات السمك على مائدة الدرجة الثالثة التي لا تنتهي.. سمك مقلي، سمك مشوي، سمك نيء، سمك بالجبنة، سمك مُفسّخ (فِسيخْ)، حتى الإفطار الصباحي معظمه أصناف من السمك.. يهلل الراكبون حين تأتي تورتة السمك الضخمة مُزينة بنماذج محلاّة من الزهور والفاكهة..

.. عهد علي ألّا أذوق السمك في حياتي بعد أن اغادر المركب اليوناني هذا..

***

_ أعطني طبقاً من الباذنجان المقلي هذا!.. وقطعة الجبنة الكبيرة تلك!.. قطعة أُخرى من الكوسا المقلية!.. خبزاً من هذا!، ومن ذاك أيضا!، فانا اتضوّر جوعاً من الصيام لأيام عديدة..

كل ذلك التفاهم بلغة الإشارات العالمية المألوفة، باليدين وهزّة الرأس والعينين والتمتمة بأحرف كلمات مبهمة من لغات عدة..

.. يبتسم البائع العجوز..

.. لا وجود لدكان قرطاسية بين صخب العربات وصياح الباعة ونباح كلاب الأزقة القريبة التي ترتاد سوق الميناء وتمشي بأمان بين أرجل الباعة والمتسوقين، مطالبة بحقها المشروع في الوليمة.. لا مِحبرة ولا أقلام..

.. أجلس مستمتعا بشمس الخريف في مقهى السوق.. أتناول وجبتي من الخليط الدافيء مع قدح كبير من الشاي.. وأتمنى أن تنتهي رحلتي هنا على شواطيء اليونان، في ضاحية أثينا، بيريوس، تنتهي هنا عند مدخل الميناء، بين عربات الأطعمة والتذكارات، بين صخب الناس ونباح الكلاب ومواء القطط الشرهة، تحت شمس الخريف المخدِرة.. في مقهى السوق عند التخت الخشبي الذي أجلس عليه تنتهي هنا.. وإلى الجحيم مع الدراسة والعلم والطموح كله.

***

(جنوه).. نزول إلى الميناء بعد صيام آخر من أسماك السفينة..

.. أفتقد جنة أسواق اطعمة بيريوس.. أبحث عن مكان آكل فيه، أي مكان فانا أتضوّر جوعا، حتى الخبز الحاف والشاي الذي كنت اتناوله اقذفه مستفرغا الى البحر، السمك المقدم على مدار اليوم يملأُ لا منخريّ وزوري وأنفاسي، بل يعوم بين خلايا جسدي وروحي..

.. هذا مطعم على الناصية على قدر إمكانياتي -كما يبدو-.. أسارع الى مائدة شاغرة على الرصيف..

.. .يقف شاب بملابس العمل الأنيقة قربي محييا ويقدم لائحة الأطعمة، ويرطن مبتسماً بكلمات بعيدة عن فهمي..

.. اخاطبهtea _ Meat.. bread.. !Please

_ ? ..dowa .. ona .. ce .. Pardony

أفهم من كلماته وحركة يديه ورأسه نوعا من التساؤل..

_ Meat!.. Bread!.. Tea!

أُحرك أصابعي صوب فمي مكرراً الكلمات:

_ !! ,.. !Meat

_ ok meat.. but what meat.. Steak?.. Sausages ?.. Katlet ..

مفهوم.. أيّ لحم؟.. ستيك؟ نقانق؟.. كاتليت.. ؟

.. أصمت.. ويبدو أن الحيرة التي ظهرت على وجهي جعلته يبتسم..

_ تعال معي إلى المطبخ ايها الشاب!.. أشار إليّ

.. نظر الطباخون باستغراب إلى الشاب اليافع.. ضحك البعض.. علّق البعض الآخر وأنا أدور بين القدور والطناجر والقلايات، أنظرُ بين أبخرتها المتصاعدة إلى ما يغلي تحتها او يُقلى..

.. أشرتُ أخيرا إلى نوع داكن من المرق تسبح فيه قطع لحم صغيرة..

_ Goulach (غُلاشْ) قالها النادل الذي يقودني بارتياح.. عاد بي بأدب جم إلى طاولتي على الرصيف.

رغم متعة الشبع بعد الجوع والمعاملة الظريفة، لم تعاودني تلك الرغبة السابقة في مقهى سوق بيريوس، بأن أُنهي الرحلة والعلم والطموح للبقاء على مائدة فوق رصيف الشارع لمطعم في جنوه..

***

.. أخيرا وجدتها.. وجدتها!

وهرعت إلى الرجل الذي ينتحي ركناً منزويا ظليلا من الشارع القريب إلى مدخل الميناء..

.. كان في كفّه الأيمن مجموعة من أقلام الحبر وحول ساعده الأيسر ورسغه ساعات بأسوّرة مختلفة..

.. أشار إليّ بالأقتراب.. رطن بكلمات همساً مقرّبا فمه من أذني، ناظراً ذات اليمين والشمال بحذر.. " لابد أنها بضائع مهربة.. رخيصة حتما ".. مدّ ساعده الأيسر بساعاته.. هززت رأسي بالنفي، مشيرا إلى كفّه الأيمن بأقلام الحبر العديدة.. إخترت باركر ٢١ كنت أراه في يد الموسرين في بغداد..

.. ذكر لي سعرا بالليرة الإيطالية..

_ كلا.. بالباوند رجاءً!

_ باون!.. باوند إذا للقلم!..

_ كلا نصف باون!

.. بدا على وجهه الإمتعاض والغضب.. لعبتُ لعبة من يرفض ويهم بالمغادرة..

.. إبتسم و خاطبني بلغة انكليزية سليمة:

_ يبدو أنك طالب مسافر.. سأعتبر ذلك هذية مني لك.. هات نصف الباوند!.. سآخذ ربحي من مسافرين موسرين غيرك.

***

(كان حمدان ذلك القروي البسيط من الحسكة السورية يقف بين صف المسافرين على السفينة نوسترادموس قرب سياجها الحديدي المطّل على رصيف ميناء بيروت المحتشد بالمودِعين.. كانت هنالك إمرأة في مثل سنه بملابس ريفية براقة الألوان وحولها أربعة أطفال بين الثالثة والعاشرة، ترفع بين الحين والآخر طفلها الرضيع الخامس الذي تحتضنه رافعة وموجهة الطفل الباكي صوب حمدان.. المرأة تبكي، وحمدان يشهق ويغصّ بعبرته في البكاء.. ما أصعب الفراق.. فراق طويل.. هو يهاجر إلى أقربائه في الأرجنتين طلبا للرزق، كم ستطول الفرقة على أمل -قد يكون مستحيلا- في لحاقهم به هناك إلى بلد المهجر..)

.. بقع حبر تفلت من القلم الثمين على الصفحة التي أكتبها وأنا اجلس في شمس الظهيرة فوق سطح السفينة.. بقع حبر أخرى ،،ثم ما هذا الإحساس الغريب بليونة غلاف القلم الذي أكتب فيه.. آثار اصابعي الممسكة به تبان منغرزة في الغلاف المنبعج الأسود.. أصابعي ملطّخة بالحبر.. أحاول مسك القلم الثمين الشهير المهرّب فيلتوي كما العلكة في ماء حار..

.. أأغضب أم اضحك؟! (هَيهْ.. هَيهْ.. قَشْمرْ!!).. أرمي بقلم الصفوة الموسرة المميز من فوق سياج السفينة.. تعود بي الذاكرة إلى الزقاق والشارع في الإسكندرية.

***

ونحن نتابع إقتراب السفينة اليونانية من سواحل مارسليا وقلعة (نوتردام دي مارسيل) ونصب المسيح الضخم أعلاها، متكئين على إفريز السفينة، بين صخب شلة الشباب –المراهق- السورية وتلويحاتهم وممازحاتهم النشوانة بقرب الوصول، همس أقربهم في أذني:

-لقد اقترحتْ عليّ جانين أن أُقيم معها في سكنها في باريس.. إياك من الوشاية عند شلة الزعران التي معي وإلا افسدوا الوليمة.. " خلق الإنسان حسودا " وكلك نظر يا صديقي!

***

كان نزولنا إلى شوارع المدينة شبه المقفرة أول صباح الأحد، بعد أن أودعنا أمتعتنا في مستودع الإنتظار.

.. تسمّر إثنان من مجموعتنا وهما ينظران بانصعاق إلى صور النساء العاريات إلا من أشرطة شحيحة نصف شافة فوق عوراتهن من إعلانات كاباريه صغير.. بعد بضع خطوات وأمام ممرضيق لمدخل دكان مغلق وقف حامد مأخوذا على رصيف الشارع.. إجتزناه وهو لا يقبل الحراك..

.. كان هنالك في الممر، إثنان غارقان في قبلة طويلة..

-أنا لن أعود إلى ضيعتنا في سوريا.. أنا باقٍ هنا.. باقٍ لن أعود..

كررها حامد بحرارة وبصوت منفعل مختنق بعد أن لحق بنا بعد قليل.

***

_ فندق رخيص ومعقول رجاءً!..

_ ساوصلك إلى (بنسيون) أوصلت إليه قبل أيام أصحابك من الخليج، أجاب سائق التاكسي.

دلّتني سيدة السكن العجوز على غرفتي بعد أن أنارتها وإلى مكان الحمام المشترك.

لم يطل بي المقام طويلا في الغرفة إلا وطُرق الباب عليّ برقة..

.. كان على عتبة الباب شاب أسمر عربي الملامح في الثلاثينات..

_ هاي!.. شكلك والله عربي.. مرحبا أخينا.. ومن حَبةْ بغداد على خدك، ما أنتْ إلا عْراكَي..

_ مرحبتين..

_ إحْنهْ خُوانَكْ من الكويت، جيرانك في البلد وفي السكن هْنيْ.. غرفة ٦ و ٧ و ٨، وآنَهْ إسمي فهد، وَيّايْ صابر ومِشعَل، جايينْ سياحة..

_ وانا صفاء، وما غْلِطتْ.. عراقي.. مشروع دراسة.. تفضل سيد فهد.

_ يزيد فضلك.. الليلة إحْنا عازمِينَكْ وَيّانَهْ.. مكان فَرفَشَه قريب.. ساعتين ونُمرُكَ عليك.. يكون إستراحيتْ.. سَلامات أخونا.

بعد أن إغتسلت وأبدلت ملابسي إستعدادا للسهرة.. طرقت عليّ الباب مرة اخرى

كان فهد امامي من جديد وعلى وجهه ابتسامة غريبة..

_ تعالْ ويايّ لحظة لو سمحت..

قادني إلى الحمام الذي غادرته قبل دقائق:

_ شوفْ.. بربكْ!.. شوفْ! وأشار إلى حوض البانيو.

كان الحوض أسوداً من الأوساخ والدهون العالقة.

.. لم أستحم يوما في حوض بانيو.. وحين ملأته بالماء الساخن ودخلت في نعيم دفئه واسترخاءه، ودلّكت ما علق عليّ من كل ما تراكم من غبار وعرق بيروت وأتربة أزقة الإسكندرية ودهون أسماك أثينا وأدخنة سيارات جنوه

وقطارات مارسيليا ومواني إنكلترا.. إثنا عشر يوما لم يعرف فيها جسمي الإغتسال.

.. حين فتحت سدادة بالوعة البانيو لم أحسب حساب ما يترتب على صرف مياهه الراكدة ببطء من ترسّب وعلوق أوساخ قرابة إسبوعين من السفر المتواصل.

_ هايْ العجييزْ صاحبة البنسيون، لو شافتْ ها السخامْ.. جَانْ شَيّلتَكْ بْلَيلَه سُودهْ

.. قبل أن يكمل إيضاحه، بادرتُ وأعتذرت بالعجلة في مغادرة الحمام، وإني سأقوم فوراً بتنظيف حوض البانيو.

***

.. كان (كابا كابانو) باراً ومطعماً غير بعيد عن سكنانا..

.. مكان متوسط السعة والأناقة، ذو بار جميل كبير وعدد غير كبير من الموائد، تتوسطه ساحة رقص صغيرة، إضاءته مريحة خافتة، تصدح فيه موسيقى كاريبية وافريقية.. زبائنه خليط من خلاسيين وسود وعدد غير كبير من الإنكليز معظم النساء الجالسات فرادا أو برفقة أحدهم او إحداهن، قد تجاوزن سن الأربعين.. مفرطات في اناقتهن ومكياجهن.

جلسنا وراء منصة البار.. لم يتناول أيّ أحد منهم مشروبا كحوليا.. كذلك فعلت..

.. نصف ساعة مضت وعيون فهد ومشعل وصابر منهمكة في التجوال بين وجوه الجالسات..

.. نهض مشعل وصابر. ثبتّا رباطيهما، أحكما أزرار سترتيهما وتقدما إلى إمرأتين جاوزتا الأربعينات في ركن خافت الأنارة.. طلباهما للرقص..

.. كان السرور يضيء وجهي مشعل وصابر أثناء الرقص.. لم يلبث بعد حين أن انتقل بشكل تدريجي إلى وجهي السيدتين.. إختلطا بمجموعة من الراقصين وسط الحلبة.. زاد التصاقهما برفيقتيهما.. لم يغادرا الحلبة.. بقيا ملتصقين في انتظار الرقصة التالية..

.. غادرني فهد إلى شابة ممتلئة في العشرينات تجلس وحيدة في ركن آخر.

.. لم يكن أمامي وأنا أجلس طويلا وراء منضدة البار إلا أن أطلب قدح بيرة وأتابع مشهد الراقصين..

خرج مشعل ووجهه يشرق بإبتسامة عريضة، متابّطا ذراع رفيقته النشوانة من ساحة الرقص، ولوّح اليّ بيده مودّعا وهو يتجه معها صوب مدخل المرقص.. وأختفيا..

خرج صابر من ساحة الرقص واتجه مع صاحبته حيث مكان جلوسها.. وضعتْ شالاً على كتفيها، أخذت حقيبتها وانصرفت معه.. لوّح لي قرب مدخل المرقص بكفه مودّعا..

.. لم يطل إنتظاري في متابعة المشهد..

.. خرج فهد برفيقته الشابة الممتلئة الجميلة ولوّح لي كرفيقيه بكفّه من بعيد.

***

كان عليّ أن أغادر البنسيون في اليوم التالي لألتحق بالسكن الذي أعدّه لي زميل دراستي الثانوية قيس، عند عائلة إنكليزية مجاورة لسكنه، مررت بالصحبة الكويتية لأشكرهم على الرفقة وعلى دعوة أمس..

.. كان أمتع حكاياهم على فنجان القهوة المقدّم عن مغامرة الأمس مع النساوين هو حكاية صاحبة فهد، تلك التي أتلفت ياقة قميصه بزخات من قُبل بأحمر الشفاه السميك على شفتيها..

.. لم تعطه موعدا قريبا جديدا، فقد انتهت إجازة (التطهير) التي تتمتع بها كل شهر تقريبا وعليها أن تعود إلى زوجها المزارع في يوركشاير..

.. " آتي إلى لندن كل شهر تقريبا لبضعة أيام بحجة التسوق، أنفض عن جسدي كل لوثاته الجنسية المتراكمة، من بقاءي شهراً حبيسة المزرعة والبيت ومسؤوليات الأطفال ورتابة الممارسة الليلية الشحيحة المملة مع الزوج الطيب الوادع..

.. بضعة أيام من الجنس الصاخب المنفلت هنا.. آه.. آه لو تدري كم أعود نقية، شافة الروح والضمير.. أرجع إلى القرية بلهفة المخلص المحب لزوجه ولبيته ومسؤولياته.. يتجدد حبي وولاءي ورضاي.. آه يا فهدي الوحش الجميل.. أعود إلى هناك كما البلورة النقية.. "

يضحك فهد ملء صدره، وهو يروي كيف ترتمي عليه بعد اعتراف غفرانها هذا لتغمره بقبلاتها وآهآتها المشبوبة من جديد..

***

_ مَنْ هناك.. ؟!

تساءلتْ السيدة العجوز وهي تمعن النظر عبر عويناتها السميكة، محرّكة رأسها يمينا وشمالا وهي تحاول مدّ رأسها أكثر من فوق عتبة باب الدار صوب مدخل حديقته الأمامية الصغيرة، جاهدة تمييز القادم الذي رنّ عليها الجرس..

.. أطرقتْ لحظة ثم استندتْ على إطار الباب بذراعها.. رفعت رأسها من جديد بتصميم، معيدة التمعن مرة أخيرة قبل أن تصرخ بدهشة وفرح __ أوه صافا!.. او صافا!.. شيء لا يصدق.. come ، come!.. إختنق الصوت فأكملت بالإشارة،.. تعال!، أسرع!..

.. على عجل فتحتُ باب سياج الحديقة وهرعتُ صوبها ناسياً أن أغلقه خلفي.. دام إحتضاننا لحظات طوال، قبل أن ترفع عينيها الجذلتين الدامعتين وتتمعن في ملامح وجهي لتعود فتحضنني..

_ I thought you have been slaughtered in your bloody middle east..

نعم تصورتْ ذلك، أنك ذبحت في شرقك الأوسطي الدامي اللعين.

قادتني صوب غرفة الجلوس التي أعرف كل تفاصيلها.. لا تزال تمشي دون عكّاز.. بعض إنحناء في جسدها ولكن لا زال الرأس مرفوعا بالاعتداد الذي عهدتها عليه قبل أكثر من عشرين عاما.

_ فنجان قهوتي التي أحببتها؟.. دون سكر او حليب؟..

.. نهضتْ من مقعدها بجانبي، متجهة صوب المطبخ..

.. تبعتها..

_ لن يضايقك mom ان أتبعك إلى المطبخ مثلما كنت أفعل ذلك كثيرا في السابق؟

_ تعال! تعال لنكمل تفاصيل مسيرتك المتشعبة الغريبة.

***

بعد أن أطلعتني سيدة الخمسينات على غرفتي وبقية مرافق الدار الذي ساسكنه قادتني إلى غرفة الجلوس.

_ شاي؟..

_Thank you!

_ قهوة؟

_thank you!

Thank you Yes ? or Thank you No ? _

(شكرا نعم؟ أم شكرا كلا؟)

_ أقصد شكرا، لا تتعبي نفسك سيدتي.

_ لا تعب أبداً.. الآن خبّرني أيهما تفضل.. انا ساشرب معك القهوة..

_ Thank you , coffee please

_ أطلعني صديقك المقيم قريبا منا على قدومك إلى إنكلترا للدراسة، ورجتني جارتي، التي يقيم عندها قيس أن أجد لك مكانا بيننا..

.. نسكن هنا أنا و(ماري).. والدتي، و هي صبية التسعين.. إبني وزوجته وأطفاله يسكنون غير بعيد عنا.. وهي في زيارة لهم ستعود بعد قليل، عجوز مرحة لا زالت تعشق الرقص. عملت في فرقة مسرحية موسيقية في شبابها.. كل مافي البيت سيكون تحت تصرفك إلا غرفة نومنا المجاورة لغرفتك.. إفطارك الصباحي معي لو أحببت فهو يناسب مواعيد دوام المعاهد.. ولو تأخرت في النوم في إجازاتك فستجده جاهزاً هنا على هذه الطاولة، وإبريق الشاي في المطبخ.. عشاؤنا سويا في حوالي السابعة.. بالطبع فترة غداءك ستكون في الكلية، أما الآحاد فوجباتك الثلاث معنا لو شئت.. إترك كل الملابس المعدّة للغسيل وستجدها نظيفة مكوية في غرفتك في اليوم التالي.. لن أضع عدّاداً لمصروف تدفئة الغاز في غرفتك مثلما يصنع الكثيرون.. أجرة الاقامة لدينا ثلاث جنيز (ثلاثة باونات وثلاث شلنات).. هل ترى ذلك مناسباً لميزانيتك الدراسية؟

***

لم يكن لي سرير عريض أنيق وثير الفرش كهذا من قبل، فكيف بغرفة كبيرة خاصة تطلّ نافذتها على حديقة الدار الخلفية الواسعة المعتناة بزهورها الجميلة ونجيلها.. طاولة للكتابة وكرسي قرب النافذة وخزانة ملابس، أرضية فوقها سجاد مثبت بألوان جميلة.. كوميدينو قرب رأس السرير ومصباح منضدة، لمطالعة السرير الليلية.. أجد فوق المنضدة قدح حليب كل ليلة – يجابهني عتاب رقيق من صاحبة السكن (هيلين) أو والدتها العجوز المرحة ماري لو لم أتناوله قبل النوم..

.. في الليالي الباردة أجد تحت الأغطية كيس الماء الحار المطاطي لتدفئة الفراش خوفا عليّ من لسعة الأغطية البيضاء الناصعة دوما.. أجد دوماً زوج جوارب صوفية فوق وسادة السرير.. الملابس التي تحتاج إلى غسيل والتي أضعها في سلة الحمام الخاصة بها، أجدها فوق السرير في اليوم التالي نظيفة مكويّة.

- Good morning Safa.. نمتَ أمس جيدا؟.. كانت ليلة باردة حقا، تبادرني التحية كل صباح وأنا أنزل السلم، متهيئاً بلوازمي للخروج إلى الكلية، وهيلين تتنقل بين المطبخ وغرفة الجلوس.. أجلس على مائدة الإفطار وفوقها صحون الزبدة والجبنة والمربى ودورق الحليب وسكينا وكوب شاي وملعقة ومنديلا أبيض أمام كرسيينا.. لحظات وتأتي بوجه مبتسم حاملة إبريق الشاي والماء الساخن.. تتناول إفطارها على عجل.. (هيلين ووالدتها لا تتناولان الحليب ولا السكر، إستعادة لذكريات أيام الحرب.. الجنود والأطفال أحق منهما بذلك).. تستأذن - بعد إفطار سريع- في الخروج كي لا تتأخر عن موعد عملها بمصنع المظلات الحربية الذي إلتحقت به منذ أن إندلعت الحرب العالمية.. بعد أن تضع معطفها المعلق في الممر، تعود فتطلّ عليّ من باب الغرفة..

- لاتكن مهملا فتنسى إرتداء لفاعتك الصوفية التي حاكتها لك ماري، أو أن تنسى تناول غداءك في الكلية.. أنت بحاجة إلى دفء وطاقة.. أراك مساءا!

تقول ذلك بابتسامة وتسارع بالخروج.

***

مثلما قام صديقي في ثانوية الأعظمية قيس بتشجيعي برسائله من لندن بالقدوم إلى إنكلتره، حين علم بضجري من طاولات تشريح الجثث ووخز الضفادع الحيّة وتعليقها على الألواح وتعذيبها كما فعلوا مع الحلاج، بحجة دراسة منعكسا ت الألم والألم المسيطر، ثم تقطيعها لدراسة أعضاءها، قمتُ أنا كذلك بتشجيع صديق محلتي في منطقة السفينة، خالد بترك كلية الحقوق والقدوم لدراسة الفرع الذي يرغب فيه في لندن، حيث لا زالت أوربا المنهكة رخيصة العيش، بعد خروجها من حرب ضعضعت كياناتها الإقتصادية..

.. خالد الذي كنت أعزّه كثيرا لضحكته المجلجلة الصاخبة ولإنطلاقته، ولرواياته لغرامياته الفاشلة مع الصبايا الحلوة من جيرته، والذي لا تدخل السياسة وأحاديثها الشائعة في لقاءاتنا، والمختلف عن بقية المتجهمين الجادين من رفقتي، الذين أُنهك نفسي معهم في أحاديث السياسة والنضال والمواقف والسجن والتعقب البوليسي وشغب التظاهرات المحمومة.. أضف الى كل ذلك هيأته الفارعة وخصلة شعره الصهباء التي تتهدل على جبينه كلما أنطلق ضاحكا بعد نكتة أو مغامرة فاشلة يرويها..

.. وفوق كل ذلك، إعجابي بأخته الجميلة الرشيقة التي تصغره بسنة، والتي كثيرا ما ترتدي أزياء غير باهضة من آخر صرعات (المودة)، خصوصا حين تضع ذلك الحزام العريض المزخّرف الذي يشدّ خصرها بالغ النحافة.

" وحذارِ أن تقدم عبر رحلتك الطويلة إلى لندن بحقيبة واحدة بالغة الثقل مثلما فعلتْ.. عليك أن تأتي بحقيبتين تقسّم فيها ثقل أحمالك لتستطيع إستخدام ذراعيك، لا ذراعا منهكة واحدة "

ذلك ما كتبته في رسالتي قبيل سفره.

***

كنت في استقباله على رصيف محطة فكتوريا..

.. نزل من العربة بحقيبة يد صغيرة لا غير!!..

.. " لقد بالغ صاحبي في ترجمة نصيحتي ".. غير أنه سرعان ما قال لي إن علينا انتظار عامل القطار لينزل حقيبته من عربة الحمولات الملحقة.

.. أَنزلَ عامل القطار تابوتاً خشبيا طويلا!!..

.. هكذا حسبت الحقيبة الهائلة الثقل التي تعود لصديقي القادم.

_ ما هذا يا خالد.. ألم تصلك رسالتي الاخيرة؟

_ بلى.. لا تهتم فسندفعها سوية إلى بوابة المحطة، آنذاك سيبتلي بها سائق التاكسي أخيرا ونخلص.. ثم أطلق ضحكته المجلجلة وأزاح خصلة شعره المتهدلة على جبينه.

ودفعنا التابوت الخشبي، ساعدنا على ذلك رخام الرصيف الأملس الذي انزلقت فوقه الحقيبة الغريبة بجهد محتمل.

كنت قد هيّأت له سكنا عند عائلة غير بعيد عن مكان إقامتي.

***

زميلنا المجد في الثانوية فريق، والساكن في القسم الداخلي المُعدْ للطلبة القادمين إلى بغداد، والقادم من قرية من قرى العمارة، كان قد سبقنا نحن الثلاث، إذ هيّأه معدله الثمانيني لبعثة حكومية هندسية إلى لندن.

تعرّفنا وارتبطنا بصداقة متينة في مدينة الضباب الشهيرة إلى طالب آخر، علي، وكانت والدته من اقاربنا..

.. لا أعرفها قبل ذلك في صغري إلا بـ (أم علي) ولا أعرف علياً.. .. إمرأة سمينة تقدِم إلينا تجرجر عباءتها بين الحين والآخر، فأخالها ستطير بين لحظة وأخرى أثناء تدحرجها في باحة الدار المكشوفة كبالون حربي مكوّر اسود.

لا نرى علياً في لندن إلا مع هدايا والدته من بغداد، أما بقية اللقاءات ففي سكن أحدنا، او الأصح في مطبخه، لنعدّ وجبة عراقية..

.. رز مع مرقة باذنجان.. تمن ماش مع بصل مقلي كثيف وتمر بدلاً من الدبس.. مقلوبة.. بامية وغيرها.

.. أما طبخة (التَهجينْ) ذات (الحكّاكةْ الدسمة) كنا نتركها لحين يخبرنا علي بوصولها من بغداد على متن طائرة عراقية قادمة.

.. كانت أم علي تقدِم بقدرها الكبير إلى مطار المثنى لتتوسل إلى أحد الطيارين العراقيين، أن ينقل طبيخها المعدّ لعلي " الغريب، المقطوع الجوعان في البلد البعيد "

_ عْيونيْ أبوْ الغِيرهْ بَس هَلْ المرة.. عَلّاويْ وحَيْدْيْ الغريب المكَطوع، أكيد الجوعان هناك بْهلْ البلدْ الغريب، هناك مايعُرفونْ شِنوْ الأكلْ غير الخنزير والبُتيتَه، ليشْ أكو تِمّنْ؟!.. أكو دُولمَه؟!.. أكو تَهْجينْ أم علي أبو الحِكاكّه، إللي يموتْ علي عَليهْ.. المرةَ الجايّه أجيبْ كَدْرينْ واحد لعليْ وواحدْ إلكُمْ.. لْخُوانَك بالطيارة!..

.. لعلها بخطوط الشيب التي تبان من عصائبها، ومنظرها الشبيه ببالون حربي أسود يتدحرج موشكا على الإرتفاع تحت قبة مطار المثنى العالية، وتوسّلها بعين دامعة، تجعل من الصعب على الطيار الشهم رد طلبها هذا..

يتصل بنا عبر الهاتف فنسارع، وكل يحمل بيده شيئا متمما يشتهيه مع الوجبة الطائرة..

.. لا نُبقي في قاع القدر الكبير إلا بعض الدهون العالقة.

.. حارَ الرفاق المجتمعين في مطبخ أحدنا مرة، إذ لم يجدوا مصفى للرز المغلي، المنوي ترشيح فوحه.. لم تطل حيرتهم طويلا والقدر الآخر المعدّ لإكمال طهيه يفرقع بزيته..

_ حقا إننا أغبياء.. !

.. بدأت بخلع قميصي بين دهشة الصحاب، ونضوت عن جسدي (الفانيلة) لأبقى نصف عارٍ.. وأردفت:

_ إليكم أعظم وأدق مصفى تريدون.. ورميت بفانيلتي إليهم.

حين تكون الوليمة في مسكني ترشدني هيلين إلى كل قطعة قد تلزمنا في المطبخ وحين يتقاطر الصحب ترحب بهم بابتسامة حلوة وتسأل هذا وذاك عن دراسته وسكنه، على حين تدور ماري صبية - التسعين بينهم عابثة برباط علي، وخصلة شعر خالد المتدلية، وموزعة سكاكر كانت قد أعدتها للمناسبة وتلقي نكاتها، بعد أن تهمس في أذن خالد بصوت يصل إلى الجميع، " انها نكات القرن الماضي البذيئة ".. قبل أن تخرج هي وهيلين لتتركانا في فوضانا في المطبخ، لابد أن ترفع تنورتها الطويلة وتخرج ساقيها الضامرتين بجوربهما الطويلين الملونين وتؤدي حركة من رقصة (الكان كان) وترسل قبلة من على عتبة الباب

***

في عطل الكلية التحضيرية وحين تشرق الشمس باستحياء او لا تكون هناك أمطار أو ضباب اسود كثيف fog، أستمتعُ بالجلوس على إحدى مصاطب ساحة (الطرف الأغرْ) متتبعا حركة الناس بهيئاتهم وأزيائهم وتصرفاتهم، وتسلل الحمام بين أرجلهم بأمان بحثا عن الحبوب التي يلقونها، وتشدّ بصري النافورتان وسط الساحة، اللتان كثيرا ما قفز الأطفال الصغار وسط مهرجان مياههما المتعالي، رغم تحذير أمهاتهم من ذلك.

أرتاد مثل هذه الاماكن وحيدا، فقد انتقل خالد إلى مكان قريب من عمله وأصبح بعيدا عني، وعلي قاطع المجموعة بحجة الإستعداد للإمتحانات، و(فريق) منشغل بنقاباته واجتماعاتها العمالية الصاخبة، وجاري قيس قد تخرّبت علاقتي معه بعد أن حاولتْ صديقته إستدراجي، فوقعت في الفخ، وأصررتْ على ذلك..

_ ولكنها صديقتي!.. لا تذهب للقائها أرجوك!

_ وكيف لا أذهب إلى موعد أعطته لي فتاة إختارت هي ذلك، نعم لقد أبدت إعجابها بي فاستجبت..

_ ولكني على علاقة عميقة وجادة معها.. قال قيس بحرارة..

_ لا أستطيع!.. كيف أتخلى عن موعد إختارته فتاة، وأكدتُه أنا.. العلاقات حرّة هنا، والإنتقال من هذا لذاك شيء طبيعي تماما في هذا البلد الذي اخترنا العيش فيه..

وقعتُ في الفخ.. كان الموعد وهميا.

عادت لتستعيد علاقتها بقيس. لم تُفلح كثيرا، فقد غير موقفه من الاثنين، منها ومني.

إستمرت علاقتي به حينا، ولكن ببرود وتحفظ من الجانبين.. إنقطع عني تماما بعد فترة.

.. إنتقل من مسكنه المجاور لتبدّل كليته.. .لم أره الى يومنا هذا.

.. علمت فيما بعد أنه إنتقل الى السعودية الذي يعود أصل أجداده المعروفين اليها.

***

فشلتْ بعض محاولات بعض زملائي من العراقيين ربطي بعلاقة ما مع صديقة صديقاتهم أو قريباتهن، إنسحبت تماما من علاقات وجدتها سخيفة مفتعلة غبية لا رومانسية لا عاطفة فيها ولا مشاعر حقيقية، وأنا الذي كنت أسهر الليالي حتى الصباح في بلدي مع حب تورجينيف الأول وآسيته، ومع لقيطة محمد عبد الحليم عبدالله، ومع غراميات أمين يوسف غراب، وسراب نجيب محفوظ، وأشعار إبن الملوح العذرية.

.. شيء سخيف حقا وأنت عليك أن تذهب مع غبية ممن أُوصيتَ بها إلى مقاعد (اوديون) الخلفية، التي يتزاحم عليها الكثيرون، لا لتشاهد العروض المستمرة الواحد تلو الآخر بتذكرة سينمائية واحدة، ولكن لتحتضنها، وتقبلها وتداعب أثدائها كما يفعل جميع من في الصف الخلفي على جانبيك.

.. فضلتُ العزلة وكآباتها المتتالية على ذلك.

.. بين سرحاني في ساحة لندن الشهيرة الضاجة بالناس وهديل الحمام وصراخ الأطفال وعبثهم وحركة الحافلات الكثيفة حولها.. أثارت إهتمامي سلالم بناية ضخمة، بأعمدة رومانية عند مدخلها المُشرع الواسع،

تنزل السلالم المرمرية العريضة للبناية المهيبة لتصل الى الساحة التي أنا فيها.

.. أناس كثيرون يدخلون وآخرين يخرجون من بابها..

.. لفضول عابر لا غير، إرتقيت السلالم.. دخلت وقلّدت الآخرين ممن خلعوا معاطفهم وسلّموها إلى منصة غرفة المعاطف، واستلمت بدل معطفي رقماً على قطعة معدنية..

.. تبعتهم إلى القاعة الأوسع..

.. وقفت منشدها، مصعوقا عند المدخل العريض.

.. الناس يمرّون من جانبيّ داخلين خارجين، وأنا مسمّر في مكاني رغم اعتراضي غير المريح لمرورهم..

.. هنالك لوحة زيتية ضخمة أمامي على يمين الجدار المقابل، قرابة المترين طولا وواحد ونصف عرضا، لنساء ثلاثة ممتلئات متوردات وسط حرج من غابة تشرف على هضاب ووديان، وأمامهن رجلان، يبدو أن أحدهم راعي أغنام، يستندان إلى جذع شجرة..

.. حين انحسر ذهولي تحركتُ..

.. بعد خطوتين أوثلاث دخلتُ الغابة.

كنتُ أُنقّل بصري بين حوريات الجنة الممتلئات.. أستمتع بالوانهن القوس قزحية.. أتابع دراسة تفاصيل أجسادهن العارية.. أبتدء بها من مركز الكون، كون روبنس، من تلك الأرداف العارية العبلة التي لاتترهل ولا تفقد طراوة تموجها الهلامي في الوقت نفسه.

.. أنتقل إلى أجزاء الجسد القدسي الأخرى، ولا أترك مَعلَماً شبه خفي صغيرا او صارخ الظهور، إلا ودققت فيه..

.. تُنازعني رغبة عارمة، أن ألمس قماش اللوحة، وكأني لا أصدق أن أكوان التفاصيل البشرية أمامي، والألوان التي تفوق كل ما نعرفه منها، وتلك الطبيعة الزاهية المسحورة، يمكن أن يضعها مخلوق آدمي على لوح قماش..

.. أنظر يمينا ويسارا، ألمسُ باصبعي قماش اللوحة المشدود.

.. تحت اللوحة عنوان نحاسي (محاكمة باريس.. بيتر بول روبنس)

أعود إلى مدخل المتحف، إلى ألأستعلامات.

.. أسأل عن هذا المعرض..

.. تتحمل موظفة الإستعلامات جهلي، وتخبرني أن (الناشونال غاليري) يقيم معرضا للفنان الهولندي روبنس، جامعا معظم أعماله من المتاحف الأخرى ومن مالكيها الشخصيين من مختلف أنحاء العالم، وأنه بقيّ يومان على انتهائه..

.. تناولني كراسا عن المعرض، وآخر عن الغاليري الشهير.. اكبر متحف لوحات في العالم.

.. أدور في عوالم روبنس، من بشر وجن وشياطين وطبيعة وأساطير ومدن..

.. أخرج عن زمني وعن كل عوالمي السابقة، أطوف بين قاعة واخرى وكأن موجا اوتيارا بحريا ينقّلني من كون إلى آخر..

.. أحسست بجوع شديد يكاد يثقب جوفي..

.. نظرت إلى ساعة كبيرة في المتحف.. إنها الرابعة.

.. خمس ساعات متواصلة..

.. سألتُ موظفة الإستعلامات اللطيفة عن أقرب كشك للطعام..

_ هنالك مطعم فخم صغير في قبو المتحف لزائريه..

تناولت أرخص وأسرع مافيه.. سندويجا من الجبنة والخس مع قدح صغير للشاي..

.. كان ذلك اكثر مما تسمح به مدخراتي الموشكة على النضوب.

أسرعت عائدا إلى مكاني من آخر صالة عرض كنت أهيم فيها.

في اليوم التالي.. هربت من محاضرات الكلية، وكنت قد أعددت سندويجين جبنة من مطبخ مام هيلين، وأسرعت الى المتحف لأكمل لوحات معرض روبنس الذي ينتهي بعد يوم واحد..

.. أستريح من جولتي أحيانا فوق أريكة جلدية وثيرة، وأمامي لوحات (تيرنر)، الذي اكتشفت موقعه أمس مع قاعات روبنس.

.. أنظر يمينا وشمالا، وأُخفي راسي تحت طرف سترتي وأقضم قطعة من سندويجي المُعد..

.. أرفع رأسي وأتابع تيرنر وأنا ألوك بحذر ماسرقته بفمي خوف الحارس.. مررتُ عبر عوالم غرائبية لفنانين آخرين في قاعات المتحف الهائل أثناء استراحاتي القصيرة في تجوالي..

أصبح المتحف كعبتي وقبلتي كلما أتاح لي الوقت ذلك.

***

بدأت عطلة الصيف.. مارستُ أعمالا تسعف بقائي في بريطانيا.

من واجبات الصباح لكل العاملين في مطاعم الفندق وباراته، التي لا تزال مغلقة، القيام بأعمال جانبية أخرى، كتنظيف مقاعدها والحمامات الملحقة بها، أو بعض المهمات الأخرى لجلب بعض المستلزمات لها من مخازن الأقبية الكبيرة.

.. تقدّم إليّ رئيس العاملين في الفندق.. ألقى تحية الصباح ثم سألني أن أتبعه.. قادني إلى مرافق البار الذي أعمل فيه مساعدا للبارمان في المساء.. أشار الى المباول الرجالية الأنيقة التي يتلامع بياضها كالبلور، إلا من بعض أغبرة قليلة فوق حواشيها..

_ لمْ تقمْ بتنظيف هذا الجزء التابع لموقع عملك!!

_ كلا.

_ ولم ِ ذلك؟

_ أنا لا أقوم بتنظيف المرافق..

_ ولكنه ضمن مسؤولياتك.. هل تأنف أن تقوم بهذا العمل.. أنظر ايها الشاب.. أعمل هنا لأكثر من ثلاثين عاما وأنا الآن رئيس كل عمال الفندق، كهل في الستين من عمري،.. أنظر!

توجه إلى صندوق أدوات تنظيف الحمام.. إرتدى قفازا مطاطيا.. سحب قنينة منظف وإسفنجة كبيرة.. سكب السائل المنظف على المبولة ومسح بالإسفجة المبوّلة وحواشيها.. لم يستغرق ذلك كله أكثر من دقيقتين..

_ أنظر إليّ ايها الشاب، هل إنتقص ذلك مني شيئا؟!.. هل أصابني بضرر.. ثم استقام بقامته رافعا هامته وأستطرد..

_ أنا كما أنا، قبل ذلك وبعده.. لاأعرف ماالذي يدور في خَلدك ولكني لن أُجبرك على القيام بشيء لا تريده، رغم عدم رضاي عن ذلك..

قال ذلك بهدوء لا انفعال فيه ثم غادر.

***

حلّ المساء.. أخذت موقعي من البار.

_ تفضل!.. هذه طبلية السجائر!

قدمتها للرجل الأنيق الكهل الجالس وراء منصة الشاربين..

_ من أيّ بلد انت؟

_ طالب من العراق.

_ إنه إذاً عمل العطلة الصيفية.

_ تفضل!.. قدمتُ للكهل قدح البيرة السوداء.

أخرج الكهل باونا معدنيا وقدمه إكراميةً لي..

_ أشكر لطفك سيدي!

هززت رأسي إعتذارا بابتسامة عرفان، وشكرته..

بين دهشة الكهل وتردده في إعادة العملة إلى جيب صِداره، سارع البارمان بقوله:

_ وأنا سآخذه منك!نيابةً عنه، شاكراً لطف كرمك.

حين اجتمع الطلبة النُدل الأجانب المتدربين ومساعديهم آخر الليل في غرفة استراحتنا في الطابق الأعلى من الفندق الباذخ، المطّل على الأطلسي، الذي تغسل أمواجه الصاخبة أرصفة (بورثكول)، منتجع أغنياء الانكليز، اجتمعوا، ليراجعوا أحداث يومهم وليحسبوا مجموع إكراميا تهم من الزبائن ليقتسموها.. تذكرتُ تصرّفي مع إكرامية الكهل في بار الفندق..

" وأيّ ضيرٍ في تناول إكرامية سخية كتلك.. كان الكهل الثري يحاول أن يبدي تعاطفه مع طالب مغترب.. (صحيح انك ذوق سِرْ يا أفندي!).. جنيه كامل!! إنه إيجار غرفة لإسبوع كامل.. وأيّ مس بكرامتك أيها الأحمق المفلس؟!.. أنظرإلى تصرّف طلبة الفندقة النرويجيون وكيف يقتسمون فرِحين حصيلة إكراميا تهم.. فرح وإعتزاز بما أنجزوه وما كوفئوا عليه.. ".

قال لي صديق يوماً " العراقيون يعانون من مرض إسمه (تضخم الكرامة)".. .. مرض لا تعالجه إلا أيام الشِحّة والفاقة الصعبة.

***

ساعات محدودة بعد الظهيرة حين يخلد رواد الفندق، وأكثرهم من كبار السن إلى سويعات راحتهم في غرفهم، كانت لدي فرصتي لأصطحب صندوق الحاكي (الغرامفون) الصغير المتنقل وأرتقي تلّة صخرية قريبة، تشرف على المدى اللامتناهي لزرقة الأطلسي الداكنة، حيث يتحول الصخب لأمواجه العارمة إلى همس ووشوشة ناعمة.. هناك على صخرة منبسطة عريضة، حيث مكاني الدائم المفضل، أجلس لاستمع الى صوت (تينور) عصره بنيامين جيلي في مقاطع اوبرالية أو في أغانيه (النابولية)..

الموقع الفريد، والغرامفون، وصوت جيلي وأنغامه، والشاب الأسمر اليافع، معثكل الشعر، جلب إنتباه البعض..

.. مصوّر يجوب السواحل البريطانية، منحدراتها الصخرية هو موضوع معرضه القادم،.. عربة غجر تجوب المنطقة،.. فضوليون عابرون، يقتربون ويقفون الى الجوار يتأملون البحر من على الصخرة العريضة الملساء، ويميلون ببصرهم جانبا ليعرفوا حقيقة التكوين composition،.. في التشكيل غير المألوف، من الصخرة المنعزلة المشرفة على الأطلسي، والغرامفون بصندوق محمول، وغناء غريب وشاب أغرب.. تجد بعض الكلاب السائبة أو الأخرى، التي تُفلت من أصحابها المتنزهين طريقها الىّ ايضا..

.. ثم أتتْ سمانتا، مباشرة لتجلس الى جواري.. لم تتجاوز الثامنة عشر، ذات وجه طفولي بعينين وسيعتين داكنتين وشعر كستنائي قصير وجسم ممتليء عبل، وبملبس أنيق، تضع كل يوم وردة مختلفة اللون في جانب شعرها.

_ هل لديك مانع في الجلوس برهة والإستماع الى جيلي، فانا من عشاقه؟

_ سروري..

لم تكن تطيل جلوسها، وهي تستمع مغمضة العينين إلى الصوت الساحر،.. تستأذن شاكرة ثم تغادر صوب مركز المدينة الصغيرة.

تكرر اللقاء وتنوعت الأحاديث، وزالتْ بعض الموانع.. فكان أن فاتحتها بالإنجذاب، فالإعجاب.. تلّمستْ يدي كفّها القريب، فلم تنسحب،.. ضممتُ

عليها كفّي فارتخت أصابعها.. أحطتُ كتفها بذراعي فتدّارت بالنظر البعيد إلى الزرقة الداكنة اللامتناهية أمامها،.. قرّبتُ نصف جسدها الأعلى إلى صدري فمالت وكأنها التفاتة طبيعية.. وضعتُ رأسها على كتفي، فاستكانت كالطفل، شممتُ عطر شعرها السَبلْ.. قبلة على الرأس.. بعد لحظة صفاء.. قبلة على الجبين.. وضعتُ أناملي تحت ذقنها وأملتُ وجهها صوب وجهي بأناة ورفق.. قبلتها.. إستجابت شفتاها..

جرى كل ذلك دون أيّ إشكال، او تمنّع، أو لهفة طبيعية أو مصطنعة، وكأن ذلك حدثٌ عليه أن يسير في مجراه الطبيعي المألوف.

تكرر مجيئها مساء كل سبت وأربعاء.

.. لم تزد طقوس اللقاء عن المرة الأولى إلا قليلا.. لم تسمح لي حتى بعد لقاءات عديدة أن أتجاوز حدود أسفل حمالتها.. تقبيل حلمتيّ ما يحملانه لا مانع ولا تمنّع أثناءهما.. لا تخطّي لذلك الخط الأحمر.. إقتنعت بالهبة الربانية الممنوحة.

لا تبقى طويلا، وفي ساعة محددة، تنهض، تعدّل من ملبسها وهيئتها وتنحدر صوب مركز المدينة.

***

.. ثم كان ذلك مساء السبت المشهود المشؤوم.

.. خرجتُ من الفندق مع عدتّي الموسيقية وأنا حازم أمري على حركة جديدة..

.. أتتْ كعادتها وبوردة كاميليا مثبتة في الشعر.. جرت الطقوس االمعتادة، وحين نهضتْ لتغادر نهضتُ..

.. تحركتْ صوب هدفها المعتاد فرافقتها مسافة، توقفت بعدها ورجتني أن أُبدل اتجاهي.. "لا تصاحبني في سيري أكثر من ذلك! "..

.. أصررتُ على متابعة السير معها..

.. توقفتْ من جديد ورجتني بحرارة أن لا أتابعها..

_ وما المانع يا سمانتا؟!

_ هنالك مانع.

_ هل هو سر؟.. أنا أسير بصحبتك فما الضير.. أخبريني إذاً المانع لأقتنع.

_ ما دمتَ مصرّا.. فنحن لن نلتقي ثانية، والمانع يا صديقي أن روبرت My Boyfriend في انتظاري وهو موظف يعمل في مدينة الألعاب وسط المدينة، إنه جاد في علاقته معي، نحن في عداد المخطوبين تقريبا.. هل أرتحت الآن؟.. وداعاً، سوف لن تراني مرة اخرى.

***

عدت خائبا..

.. دخلت غرفتي التي أقتسمها مع أيان، وهو شاب في العشرينات يعمل في مخازن الفندق، له هيئة مهلهلة، لا في الملبس وحده بل وفي جسمه النحيف الذي يبدو وكأنه قد رُكب من أطراف وأبدان أناس عدّة آخرين.. لا يمكن لأيان التلفظ بعبارة كاملة مع محدثه مالم يمل رأسه ويتهدل جانب من فمه ويَرول لعابه على ياقته وتهتّز ذراعاه دون إرادة منه.

.. لذا كنا غالبا ما نختصر أقوالنا بالإشارات والهمهمة.

.. كان سرير أيان فارغا خلال اليومين الفائتين.

لم يطل بي الجلوس على حافة سريري وأنا متهدّل الرأس، منشغل بدوّامة من الأفكار المتضاربة، إذ دخل عليّ روجر الكهل الطيب الهاديء الذي يحبه الجميع لتسارعه في مساعدة الآخرين بأي أمر طاريء يحتاجونه فيه.

يعيش روجر هو وزوجته سوزي، وهي في عمر مقارب لعمره في الغرفة المجاورة.

حيّاني بوجوم على غير عادته، واستأذنني بالجلوس على حافة السرير المقابل.

بعد فترة غير قصيرة وهو يجلس دون حراك، واضعاً رأسه بين كفيه المسنودتين بركبتيه، كسرَ صمته بصوت حزين مترجرج:

_ لقد هربتْ!!..

صمتَ من جديد، لم أستوعب خلالها من الذي هرب وإلى أين.. ومن الهارب الذي يَحزن عليه روجر إلى حد الفجيعة!!

_ لقد هربتْ مع أيان.. ثم أنفجر باكيا.

لم أعرف ما الذي عليّ قوله أو أي تصرف أقوم به تجاهه لمواساته، إذ أنني لا أزال غير مدرك من الذي هرب مع أيان وإلى اين.. ولِماذا هو منهار لهذا الهروب.

مدّ روجر يده إلى جيب قميصه وأخرج قصاصة ورق عليها خربشات لطفل يتعلم الكتابة جاء فيها:

I left you for good with Ian.. Don't try to follow us

Suise

(لقد تركتُك إلى الأبد مع أيان.. لاتحاول تتبعنا.. سوزي)

_ لعلها تمزح معك!.. قلتها وأنا أعني ذلك.

_ ليس مزاحاً.. لقد لملمتُ كل ملابسها وما يتعلق بها، بل وأفرغت صندوق مدخراتنا.. كان ذلك قبل يومين ولم أعثر على أثر لهما إلا قبل ساعات، إذ أخبرني أحد العاملين هنا، أنه شاهدهما يعملان في مدينة الألعاب.. هو قاطع تذاكر، وهي مرشدة لأحد ألاعيب الأطفال.. سيارات سباقهم الصغيرة.

_ شيء لا يصدق، تلك المرأة المسنة الهادئة الصموت واعذرني لهذا القول، المرأة البسيطة المظهر والملبس.. طالما كنت أغبطكما على ذلك

الإنسجام في علاقات العمل ونزهاتكما الوادعة على شواطيء المدينة في الآحاد..

_ وأنا مصعوق ومسحوق من مرارة المفاجأة العاصفة.. خمس وثلاثين سنة من زواج كنت أخشى فيه حسد الآخرين.. بل كنت من غبطتي ورضاي أخاف من حسد نفسي لنفسي.. لا ولد لدينا.. ولا أقارب أركن إليهم إنها كل ما عندي من هذه الدنيا التي كنت قانعا بها..

إهتزت كلماته الأخيرة في فمه وانحنى ليضع رأسه بين راحتيه وينخرط في بكاء إختض له جسده.

جلست إلى جواره وأحطته بذراعي فترة بصمت.. بعد أن هدأ قليلا قلت بما يشبه القناعة..

_ لعلها نزوة عابرة لابد أن تفيق منها بعد أيام لتعود إليك.. نزوة عابرة لا غير، وقلبك كبير عامر بالمحبة لغفرانها.. ستعود!.. صدّقْني ستعرف خطأها عاجلا وتعود..

صمتَ روجر فترة غير قصيرة وسهم ببصره في فضاء تعدى أركان الحجرة الصغيرة..

_ جئتك بطلب ورجاء عسى أن لا يخيب، فأنا أراك تتميز عمن حولي هنا بهدوئك وابتعادك عن صخبهم وثرثراتهم الفارغة.. ثم ذلك إلانهماك في المطالعة وهواياتك ذات الطابع الروحي، ورغم أنك في عمر أصغر أبناءي لو كنت محظوظا بإنجابهم، لكني أرى فيك حكمة الشرق الشهيرة.. لعلك ستكون وسيطي فيما أعقد آمالا عليه.. في مثل سني وبمثل بساطتي في الإقناع بالمنطق سافشل حتما، فأنا رجل لم أحظ لا بذلك التعليم الوافي او الثقافة، أضف الى ذلك فأنا أخشى أن أتعرض وفي مثل

سني إلى مهانة المجابهة والرفض.. أملي فيك أن تحاول إقناعها بالعودة.. لقد زدتّني أملا حين تحدثتَ عن النزوة العابرة والإفاقة من الخطأ.. لقد أحبتكَ وهي تعرفك كل المعرفة وتحترمك.. إنه رجاء كهل منهار يستحق بعض الدعم.. إذهب اليها.. تحدثْ بنفس هذه القناعة التي أمّلتني بها.. ضع بعض المنطق والبصيرة في عقلها الملتاث.. أرجوك.. أرجوك!!

وانخرط في بكاء حاد جديد.

***

لم يكن صعبا إيجاد مكانها رغم ضجيج الآلات وصخب الكبار والصغار من اللاعبين واحتشاد الأمكنة بهم..

.. إمرأ ة كهلة – رغم الأصباغ – ممتلئة مترهلة الجسد بملابس الجزر الكاريبية الصارخة الألوان والرسوم، بشعر ذي خصلات حمراء وزرقاء وفضية.. وجه بطبقات كثيفة من المساحيق.. الجفنان واخدود العينين محاطتان بزرقة مخضرّة ورموش إصطناعية بالغة الطول وكحل كثيف أسود.. (عروسة مُولدْ مصرية)..

كانت تجلس على مقعد حديدي قرب ساحة سيارات سباق وإصطدام للصغار، تلفّ بعينيها أرجاء الساحة مراقبة حركة اللاعبين.

.. لمحتني قادما صوبها فازاحت بصرها فورا.

سحبتُ مقعدا حديديا قريبا وجلست إلى جانبها وكاني متشاغل مثلها بالمراقبة..

.. إنتهت دقائق اللعبة المحدودة، وحلّت فترة إنتظار لبدء دورة جديدة أخرى..

_ كيف وجدتني؟!.. لماذا أنتَ هنا؟

_ لعلك تخمنين سبب مجيئي.

_ لا أريد الأزعاج في حياتي الجديدة.

_ لا بأس في حياتك الجديدة لو إنك لا تهدمي حياة شخص آخر.

_ كلٌ يأخذ حقه ونصيبه في الدنيا.. إنها قصيرة ولا تخلو من متعة وإثارة.

كانت تحدثني بهدوء وبرود من يحاور شخصا ليبعد عنه فضوله وليتخلص من ثقل وجوده بأسرع ما يمكن.

_ ولكن كيف يُساء إلى هذا الكهل الطيب بعد عشرات السنين من العشرة والمسيرة المشتركة.. كيف يُطعن رفيق عمرك في الصميم.. ولماذا.. لماذا؟!

اطلقت تساؤلي الأخير بحرارة وصدق..

_ It is Love my dear!.. Love !

(إنه الحب ياعزيزي!.. الحب!) وجمعتْ كل عمق صوتها وفخامته حين تلفّظتْ كلمة LOVE..

ثم واصلت:

_ نحن نقوى على كل شيء في الحياة، غير أن الحب يهزمنا دائما.

لم أر جدوى من متابعة الحوار فغادرت محييا..

.. لم تردّ على تحيتي.

كان روجر يجلس في غرفتي منتظرا عودتي.

إختصرت، لأعطي الحديث صفة القطعية.. مؤكدّا أنه لا فائدة ترجى وللأسف من أيّ اقناع، لا منه، ولا من أيّ طرف ثالث كان.

رجوته بحرارة أن لا يهين كرامته دون فائدة، وأن لا يقترب لا منها، ولا من مكان عملها..

لم يُصغ الى نصيحتي، إذ لمْ يستطع مقاومة إغراء المحاولة اليائسة القاتلة في الذهاب..

وجدوه بعد يومين معلّقاً بمروحة الغرفة بحبل قصير.

***

لم أُطق البقاء في ذلك المكان وصورة روجر المعلق بحبل قصير لا تفارقني نهارا وتفزعني ليلا.

إنتقلت إلى مطعم آخر قريب من مدينة كارديف، لآخذ نفس موقعي من العمل كما في فندق بورثكول السابق.

أُوكلتْ لي مهمات أكثر بعد حين لأكون مساعداً في المطبخ الذي كان رئيس الطباخين فيه (the chef) كهل هندي سمين يعمل مع عدد من مساعديه من الهنود.

كانوا في غاية الطيبة والرفق بالطالب الجامعي الذي يتقوّت بعمله في عطلته الصيفية.

حين عَلِم (الشيف) بولعي في القراءة في الغرفة التي أشترك فيها مع أحد مساعديه، تقدّم إليّ يوما في المطبخ قائلا بلهجة باسمة عطوفة:

_ أنا مولع بالقراءة مثلك، فاقبل مني هذه الهدية المتواضعة!

كانت الهدية كتيب لمجموعة من أشعار طاغور مترجمة إلى الانكليزية مع إهداء جميل منه.

لم يدم عملي هناك طويلا.

كل شي هاديء ومريح، وعملي لا إرهاق فيه، وأجري متواضع مناسب لطالب مثلي، غير أن موقع الفندق، شكله وإطلالته غير تلك التي اعتدتها في فندق بورثكول..

إختنقت، إشتقت إلى الفضاءات الرحبة، إلى صخرتي و(جيلي) والبحر.

وجدت عملاً في فضاء رحب، وإن كان بعيدا عن البحر الذي عشقته، حقول واسعة منفتحة للتوت البري، و مخيّم (كامب) ينظمه إتحاد الطلبة البريطاني، لطلاب العالم، لقطف تلك الفاكهة التي يشتهر بها االبريطانيون والتي تنضج في مواسم العطل الصيفية.

بدأت العمل هناك.

ثكنات عديدة طويلة للشبان وسرادق واحد لبضعة شابات.

.. ثلاثة أسرّة فوق بعضها في صفوف طويلة في كلّ ثكنة، يختار الأقوى سريره الأرضي المناسب فيها.

.. بضعة صنابير للماء خارجها لاغتسال الصباح.

.. كابينات عديدة من الخشب على طرف من الكامب لقضاء الحاجة وأخرى أقل منها للإستحمام (بالماء البارد طبعا).

ناقوس معلّق يرنّ في أوائل الصباح وعند فترات الإستراحة والغداء وإنتهاء العمل.

.. وجبة الصباح بعد انتهاء طوابير الإغتسال الصباحي، عبارة عن عصيدة لا تتغير.

.. يقف كل فرد من الطابور لتسكب له في وعائه الخاص كتلة منها مع شريحتين من الخبز المقدد الأسمر.

نستلم سِلالنا لجمع المحصول من حافلة مكشوفة. كل مجموعة منا لها مراقب عمل.. يرشدنا إلى مساطر شجيرات التوت البري الناضجة.. .. لكل واحد مسطر لا يبعد عن الآخر بأكثر من قدمين.

.. كما في سباقات الركض أو الموانع، تنطلق صافرته ليبدء كل فرد بالتحرك، ملتقطين قطع الفاكهة.

.. كلما كانت ناضجة وحجمها أكبر كان وزنها المرتقب أكثر..

.. أتقدم على زميلي في المسطر المجاور في الحركة وجمع الثمار. أثناء التقاطي لما في مَسطري من فاكهة، تسوّل لي نفسي أن ألتقط من مسطر جاري بضعة توتات كبيرات –ثقيلات- ناضجات.

.. أسمع صافرة ينتبه لها الجميع..

.. أرى مراقب مجموعتنا الشاب الإيطالي ألبرتو، يقف غاضبا عند آخر المسطر يدردم باللغة الايطالية بوجه محمر ومشيرا اليّ.

_ هيّ!! تو!! بيني!! سنكينتو بردوني، سومو، سيراتو كافينيوني.. ،..

.. يعقّبْ على هذا الرطين الغاضب فينزل بنطاله وسرواله إلى وسط فخذيه، ثم يمسك بأعضائه من أسفلها ويهزها صوبي مهددا..

أُحني رأسي وأُواصل تقدمي في قطف الفاكهة من – مسطري فقط – في الوقت الذي أسمع قهقهة الكثيرين من حولي.

يدق الناقوس مرة أخرى لاستراحة نصف ساعة.

.. يرنّ بعدها لفترة الغداء وهي ساعة ونصف الساعة.

.. الغداء غالبا ما يكون من النقانق، أو البيض مع قطع من البطاطا المسلوقة.

.. هنالك أقداح كارتونية لخزان الشاي الدافيء.

بعد أن ننجز ما علينا في المخصص لنا من الحقل، نجمع سلالنا ونقف طابوراً من جديد لوزن السلال.. سعر السلال وفق وزنها..

ياخذ كل أجره من الشلنات والبنسات.

بعد أن يعود الجميع إلى ثكناتهم للإستراحة وقضاء حاجاتهم والاغتسال يدق الناقوس في السابعة معلنا موعد العشاء..

.. حساء.. قطعة لحم مقلية، اوقطعة سمك، وبضعة قطع من البطاطا المغلية.. الخبز الأسمر المقدد موفور على الموائد.

.. بعد أيام من وجودي في المعسكر، وانتباهه الى حملي لحقيبة غرامفوني الصغيرة إلى الحقل المجاور لأستمع إلى أغاني (جيلي) النابولية، دعاني البرتو - ذو العورة الإيطالية المهددة الرهيبة- برطينه وبعض كلمات إنكليزية مكسّرة، لمرافقته إلى الحانة التي نرتادها في بعض الليالي، والتي تبعد مسافة أربعين دقيقة عن الكامب.

.. الإيطاليون والإيرلندنيون هم أكثر زبائنها من بيننا.

في الليالي الرائقة تلتئم جماعات في جلساتها، أما حول جيتار يعزف أو صوت يغني، او نقاش سياسي ساخن يدور، كثيرا ما يكون مثل هذا النقاش مصدره طلبة يوغسلاف أو إيرلنديون.

.. الإيطاليون ومعظمهم لا يجيد الإنكليزية، غالبا ما يتجمعون حول بعضهم البعض، إلّا قلة منهم كانوا قد إنسلوا مع بعض فتيات المعسكر إلى الحقول القريبة.

.. للإيطاليين حظوة خاصة بين الجنس اللطيف خصوصاً في الليالي المُقمرة.

عدد من المرات كانت حلقات الليالي تلك أوسع..

.. تُشعل نار من حطب وأخشاب، نقوم بلمّها جميعا من الأجمات والأحراش حولنا، وتتشكل دائرة كبيرة من شباب دول عديدة، كنت الوحيد بينهم من الشرق الأوسط، ووحيد آخر مثلي من الشرق البعيد.. إنه كومار!.. كنا صِحاباً.

قدّم كل بلد ممثله في فعالية وسط الساحة قرب تلة الخشب الملتهب.. أو في مكان مناسب من حلقة المحتفلين إن كان هنالك عزف جيتار أو سنطور أو بلالايكا..

.. دبكة رقص يونانية، كورس غناء يوغسلافي، (رقصة ماء) إيرلندية، مسرحية فكاهية إيطالية.

.. أشار القوم إليّ.

وقفتُ قرب اللهب والشرر المتطاير لأقدم (عمّي يا بَيّاع الورد) فنالت إستحسانا معقولا، أتبعتها باغنية سيد درويش (طِلعتْ يا محلا نورْهَ شمسِ الشْموسه)..

كانت الليلة هادئة مُقمرة.

.. طالب إسباني اخذ يعزف (أستورياس) بجيتاره، أسمعها لاول مرة، فأميل منتشيا، لأحتضن فتاة يوغسلافية على يميني.. ما إن تركت ذراعي كتفها للحظة، حتى أحسست بها وهي تميل ببدنها بعيدا عني.

.. كانت ذراع كومار الجالس لصق جنبها الأيمن، قد أحاطت كتفها الأيسر.. يبدو أن نشوة الحان أستورياس دعته مثلي إلى ذلك..

.. تبدّل موقعيّ ذراعينا من كتفّي الفتاة مرات عديدة.

.. أبدت إنسجاما طوال الأُمسية مع الطرفين من ممثلي الشرق الجائع المتعطش.

.. حيّتنا برقة وأدب جم وهي تغادر بعد منصف الليل متجهة صوب سرادقها.

.. تبادلنا التحية انا وكومار مبتسمين وكل منا يتجه صوب ثكنته.

***

إنقطعنا عن بعض فترة لمشاغل أو مشاكل حياتية إعترضتنا..

.. عدتُ للتواصل بعد أشهر مع(فريق)، وأثناء لقائي معه في حانة شعبية، رأيته منشغل الذهن عني، قبل أن يسألني فجأة:

_ هل تريد أن تحضر معي ندوة نقابة عمالية.. ذكر اسمها.. (كانت معروفة باتجاهها اليساري) قال ذلك بهمس وكأنه يخشى رقيبا يتتبعه

.. إحترتُ برهة،.. أهذا هو فريق الذي كان يبتعد كل البعد عن أي تطرّق للسياسة في لقاءاتنا في الأعظمية.. كنت أُعطيه كل الحق انذاك، فقد قدم من قرية جنوبية عراقية بعيدة، من عائلة أقرب الى الفقر تعوّل كثيرا على نجاحه المستقبلي.. وهنا هو الآن من طلبة البعثة الحكومية، السياسة قضية محظورة ومحذورة، فقد يكون للسفارة عيون ترصد ذلك بين الطلبة، او قد يُشاهَد صدفة من أحدهم في مثل هذه الندوات التي تكاد تكون شبه سرية حتى في بلد الديمقراطية.. ".. تطور كبير يا حبيبي فريق!!.. تطور شجاع في وقت كانت تضج به الصحف البريطانية في قضية إبعاد الطلبة اليساريين الخمسة، التي طلبتْ السفارة العراقية إخراجهم من بريطانيا، للدعاية (الهدّامة) التي يقومون بها في المحافل، عراقية وعربية وأجنبية، ضد الحكم في العراق.. "

_ بالطبع وأشكرك جزيلا على الدعوة.

_ إذا هيا بنا!.

لم ألتق بخالد أيضا بضعة أشهر.. إتصلت به.

طلب مني أن نتقابل في حانة في إحدى ضواحي لندن الهادئة القريبة من محل عمله ومسكنه الجديد..

.. فوجئت!

.. إنه خالدٌ آخر شكلاً ومظهراً..

.. رغم الإبتسامة العذبة ذاتها، فانه غير ذلك الصبي الناعم الخجول الذي يهتم بوضع خصلة شعره الأصهب من جبهته.

.. هنا رجل بسيط الملبس، بقميص فضفاض بنصف ردنين، تكشف عن شعر صدر كثيف مخضّل، وذراعين ملفوفي العضل، ووجه رجولي تشوبه جدية وحيرة..

كان في انتظاري على مصطبة من مصاطب الحانة شبه الخالية، إلا من بضعة رجال تبدو عليهم أنهم في فترة من فترات إستراحة عمالية مسائية. كانت بيده جريدة ملفوفة بشكل إسطواني، وقدح كبير من البيرة أمامه.. إبتسمت وانا اقترب منه قائلا:

_ أحقا أنت خالد، الصبي الجميل الأنيق اللعوب!!.. ملابس عمل بسيطة، وعضلات مفتولة مشعرة، وكأس قدح بيرة كبير يصرع الثور، وجريدة تخشى عليها من الكشف.. لابد وانها الـ(Daily Worker) (جريدة الحزب الشيوعي البريطاني التي توزع شبه سرٍ في مخارج قطارات الأنفاق وبوابات المصانع..)

_" الديلي ووركر.. عدد جديد "!! (يهمس حاملها شبه المختبيء قرب اذنك وأنت تمرق بجواره)

_ نعم إنها كذلك.. أجاب مبتسما ثم:

_ هل قرأت عددها الأخير هذا؟.. فيه مقال عنيف يتحدث عن قضية الطلبة العراقيين الخمسة، التي تطالب السفارة العراقية إبعادهم عن بريطانيا.. وزارة الداخلية البريطانية قد استجابت للطلب وهي تُعدّ لترحيلهم خارج المملكة، رغم احتجاجات منظمات كثيرة، بل وأعضاء في مجلس العموم البريطاني.. ها أنت ترى أية ديمقراطية كاذبة يشيعونها عن أنفسهم.. ديمقراطية الأنظمة الرأسمالية الزائفة..

_ حَيلكْ!!.. حَيلكْ خالد!.. أأنت فعلا خالد الذي كان بعيدا عن خضّم الأحداث المتفجرة الدائرة في بلدنا.. أهذا خالد الذي كنت استريح معه من تلك الجدالات الجدّية المؤلمة مع جماعتي، فألجأ اليه وإلى أقاصيصه عن مغامراته الغرامية الفاشلة، مع هذه أو تلك من صبايا الحارة التي كنت ترويها لي، ثم تجلجل ضحكتك المرحة بصخب وأنت تعدّل خصلة شعرك من فوق جبينك..

_ نعم هو أنا ذاته.. لكن كم يتبدل الإنسان يا صاحبي وهو يطّلع على ثقافات العالم وآرائهم المتاحة المبذولة هنا.. نعم المبذولة وغير المنوعة، نعم الكتب متاحة ورخيصة، بل ومجانية في المكتبات أحيانا.. ثم أضف إلى ذلك، إجتماعات النقابات العمالية.. ولم تستهين بجريدة الدايلي وركر!!.. ففيها الكثير مما كنا نجهله عن هذا العالم المتصارع.. قد يستغرب غيرك، ولكن لستَ أنت يا صفاء.. أنتَ من عرف المعتقلات والشعبة الخاصة ومخبريها، بل وحتى السجن الكبير.. سجن بغداد المركزي.

_ الخالدان، ذاك وهذا حبيب إلى نفسي.. كنت أعجب لسرعة تبدل ذاك الى هذا.. ولم لا، كل شيء يتطور بسرعة هنا!.. في صحة خالد بطل الإشتراكية الجديد.. قلتها ضاحكا ورفعت كأسي الصغيرة تحيةً له.

أخبرَني بأنه يعمل في قسم التحميل، في معمل كبير قريب للبيرة، وأنه يأخذ نوبات عمل إضافية ليلية، أجورها مضاعفة، ليغطي تكاليف المعيشة وبعض التوفير لدراسة مقبلة..

_ سأختار الإقتصاد والعلوم السياسية لدراستي المقبلة..

لم تطل جلستنا كثيرا.. نهض محتضنا إياي ومعتذرا بوجوب التحاقه بنوبة عمله الليلي في المعمل.

***

وصلت إليّ رسالة من الملحقية الثقافية، خلاصتها أن عضو مجلس الأعيان، الشيخ بلاسم الياسين القادم في زيارة للندن يرغب في إستقبالي في جناحه الخاص من فندق تشرشل في الساعة الحادية عشر من يوم الإثنين القادم المصادف ٢٤ آب ١٩٥٥.

كنت في استعلامات الفندق قبل ذلك بعشر دقائق.. أطلعتهم على الرسالة الرسمية.. إتصلوا بالجناح الخاص..

.. فوجئت أن ينزل لاستقبالي عسكري عراقي في الأربعينات، كهل ضخم يميل إلى السمنة برتبة رئيس (رائد في حاضرنا).. هشَّ مرحبا وقادني إلى الجناح الخاص.. لم ينسَ ان يكرر عليّ توصيته قبل دخولي " حِبْ على إيدْ الشيخ!.. حِبْ على إيد الشيخ!! "..

.. لم اعتدْ تقبيل الأيادي حتى ولا سماحة آية الله – خالي الكبير – الشيخ عبد الرسول (أقبّل يد أبي تكرّما وفي طقس يشوبه المرح وأضعها فوق هامة رأسي تبرّكا)..

***

جلس الشيخ في صدر الصالة الطويلة الفارهة فوق منصة بفرش وثير، وخلفه وعلى جانبيه كما في أي مضيف شيوخ الجنوب في بلدنا، وسائد كبيرة عديدة..

.. تحتل جانبي الصالة مقاعد الفندق الفخمة، يجلس عليها رجال بأعمار مختلفة بينهم بعض العسكريين وإثنان بالصاية والعقال..

.. صمت مهيب يقطعه حديث هامس هنا وهناك..

.. إنحنى لي الرائد قليلا مشيراً أن أتقدم الى الشيخ.. سمعتُ همسه وهو يكرر عبارته: " حِبْ على إيد الشيخ!.. حِبْ على.. "..

حين وصلت أمامه تماما، حاولتُ أن أنفّذ إرشاد الرائد..

.. سحبَ الشيخ يده بابتسامة وقورة وأشار إليّ بالجلوس إلى جواره..

_ كيف حالكْ يا وليديْ.. عَساكْ بخير وناجح بدراستك.. وصّانيْ بِيكْ أُبوكْ، وهوَ والعَيلهْ بخير.. تِمامْ الخير إنشاء الله.

_ أشكرك كثيرا عمنا جناب الشيخ على االدعوة والترحاب.. الدراسة ماشيةْ بخيرْ والحمد لله.

_ إنتهَ زِميلْ بالدراسه لإبنيْ هْلالْ هْنيْ.. صارلهْ مثلك حَسبةْ سِنة بالجثيرْ.

.. بعد عصير البرتقال الذي قدّمه رجل كهل بملابس بدوية، وبعد أن دارت فناجين القهوة على الجالسين من دلّة كبيرة أحضرها من غرفة جانبية للصالة.. أشار الشيخ بيده للرائد الذي استقبلني..

.. حضر الرائد مسرعا أمامه..

_ روحْ وَيّهْ إبنَهْ وشوفْ كلِ اللِوازمْ الليْ يحتاجها.. وكلِ شيء يِريدهْ.. والشِتْويّهْ هْنِيْ باردة ووراهْ جاَمعهْ ودْراسهْ وكِلكْ مَفهوميهْ أُبو سعيدْ.. ما وَصْيكْ!

_ أمركم جناب الشيخ!.

و بإحدى تاكسيات الفندق توجّه بي أبو سعيد إلى شارع ريجنت، حيث أفخم مخازن لندن وأغلاها ثمنا..

_ستة قمصان وستة أطقم ملابس داخلية صوفية (كيفن كلاين) وثلاث بلوزات!! طلب الرائد ذلك من بائع المخزن الفخم المتعدد الطوابق.

_ هاذيْ هوايهْ حضرة الرائد!!..

_ أُخذْ وشِتريدْ.. أُخذْا، ليشْ هوَه طالعْ من جَيبكْ؟!.. بعدينْ تْريدْ يِزعلْ الشيخْ عَلينا!!

توجّه بي إلى مخزن أحذية، فزوجي أحذية، فمخزن بدلات.. بدلتين ومعطف شمواه أسود..

.. سألني أي الفروع ادرس فاجبته: الهندسة، سأل صاحب مخزن البدلات عن أقرب محل لبيع الأدوات الهندسية، هناك أوصى عامل المخزن بأن ينتقي لي كل ما يحتاجه طالب في كلية هندسية..

.. لم أنسَ هناك أن اضيف إليها علبة ألوان مائية وبضعة فرش رسم تخصها.

عدنا بحقيبة كبيرة ثقيلة من سمسونايت غالٍ، حملها الرائد حين دخلنا الصالة وتوجه بها صوب الشيخ في صدر المجلس..

.. رافقته ليشير إليّ أن أجلس من جديد إلى جواره..

_ أبو سعيد إ.. إشتريتْ كُلْ الغْرِيْضاتْ اليْ يِلزَمّنْ للولدْ.. ما جَنّكْ قَصَرِتْ ونسيتلكْ حاجهْ يريدهَ؟!

_ كل ما يلزم ويبغي جناب الشيخ.. أجاب الرائد.

أخرج الشيخ بلاسم مظروفا سمينا وقدّمه لي مصحوبا بابتسامة حانية وقورة..

_ هذا ما يلزمكْ الشهرين الجايينْ.. إنتَ هْنيْ مثل وِلدي هْلالْ.. وفقكم الله!

ثم مشيرا الى الرائد.

_ خلي مِيةْ جنيه برصيدْ بالبنكْ لوليدنهْ صفاء وقسّمها على اربعةْ تشهرْ.. كُلْ وحْدةْ بخَمسْ وعشرينْ.. .

حين استأذنتُ بالمغادرة.. حاولت بصدق أن آخذ بكفيّ يد الشيخ الكريم، غير أنه لم يطاوعني وسحبها بحنان ووضع يده على رأسي مباركاً.

_ وفقك الله وليدي.. وديرباللك على دروسك.. الله وياك.

***

كانت هذه هي التي يسمونها هِبة من السماء.

فرحتي قدر اندهاشي وحيرتي.. كلاهما كان هائلا..

.. لقد كنت في مأزق صعب لا أعرف درباً للخلاص منه..

.. أعيش عالة على مام هيلين، فلا نقود في جيبي حتى ولا للمواصلات.. أتسكع بين المتنزه القريب وبيت جون ووني حيث صديقي ثابت وبيت العجوزين جاك ومارثا..

.. كيف سأبدأ دراستي في الجامعة الشمالية التي قُبلت بها بعد اسبوعين.. كيف أصل هناك.. كيف أسكن.. كيف أدفع اجور الفصل الدراسي الأول.. أخيرا ويا للعار، أتناول افطاري كل صباح.. أتسكع، لأعود مساءا لأتناول عشائي مع هيلين وأمها.. مدين لها بأجرة إقامة أربعة أسابيع كاملة.. لم تسأل، بل ولم تلمّح إليها يوما، ولم تتبدل ضحكتها وابتسامتها ولا قصصها عن عملها اليومي معي، ولم تنس يوما وضع كوب الحليب قرب رأسي كل ليلة قبل النوم.

***

حين دخلت مام هيلين مساء ذلك اليوم المشهود صالة الجلوس، وكنت مختبئا في غرفة الضيوف المجاورة، وقفتْ مصعوقة أمام فوضى المكان الغريبة..

.. قمصان جديدة بأغلفتها.. بدلات وأحذية ملمّعة فخمة.. معطف شمواه أسود.. بلوزات صوفية.. أدوات هندسية.. غنائم تحتل المقاعد والاريكة العريضة ومائدة الطعام الصغيرة الدائرية، وفوقها تتناثر بفوضى عشرات من الباونات الورقية.. كانت على المائدة باقة ورد في زهرية بلورية..

.. لحظات ظلتْ هيلين فيها جامدة على عتبة الباب، ثم أطلقتْ ضحكة مجلجلة:

_ أخرج من مخبأك يا علي بابا!.. هل نطقت بـ (إفتح يا سمسم!) أمام مغارة الاربعين حرامي، أم انك سلبت يهودياً.. ثم صخبت ضحكتها من جديد ونادت على أمها الهرمة المرحة لتنزل من غرفتها وترى العجائب.

على مائدة العشاء والجميع فرح ومستثار حدثتها عن الشيخ الكريم..

_ شكراً يا صافا على باقة الورد والزهرية الجميلة.. هل هو من شيوخ النفط الجدد في الخليج؟

_ كلا شيخ عشائر من الجنوب وله أعمال خيرية ذات طابع حضاري في بلدته، فقد بنى لسكانها مدرسة كبيرة حديثة ومركزاً صحيا ومكتبة،.. هو صديق لأبي.

_ لقد جاءتك في أنسب وقت وانت تستعد للإلتحاق بجامعتك في الشمال.. الدراسة تبدء قريبا كما ذكرت لي سابقا. أليس كذلك؟

_ بالضبط وعليّ حزم حقيبتي والتهيّؤ منذ الآن.. أجبتها.

***

فجر اليوم الذي أعلمتها عنه للمغادرة والسفر، سمعت أصواتا في الطابق الارضي بين المطبخ وصالة الجلوس وكان ذلك أبكر بكثير من موعد استعدادات هيلين للذهاب إلى عملها..

.. لم يطل إستغرابي إلا هنيهة أدركت بعدها السبب.

قفزت من فراشي وسارعت إلى خزانة ملابسي وأخذت عددا كبيرا من أوراق الشيخ المالية..

وصلتُ في اللحظة المناسبة لأقف حائلا بينها وبين فتح باب البيت للخروج.

_ آه منكِ يا عزيزتي مام هيلين!.. تريدين المغادرة دون تقبيلي وتوديعي.. سوف لن أراك لفترة غير قصيرة وأنا في مدينة الشمال البعيد.

قلتها بعتاب عميق وأنا أدرك تماما سبب (هروبها) المبكر.

_ لم ارد أن أقلق نومك الهاديء فوراءك رحلة طويلة متعبة.

_ كنت سأظل حزينا يا مام هيلين دون ذلك.. هل لي في لحظة حديث معك في الصالة..

_ إعذرني فأنا في عجلة للإلتحاق بالعمل..

كنت أعرف أن هنالك قرابة ساعة أخرى لموعد عملها ذاك.

_ طيب!.. أردت فقط ان أشكركِ على الكثير قبل سفري وخصوصا على إمهالي أربعة أسابيع لدفع تكاليف اقامتي الجميلة (أخرجت رزمة الأوراق المالية من جيبي)..

.. حاولتْ أن تزيحني عن طريقها بابتسامة معاتبة.. لم تفلح.

_ إسمع يا صافا!.. لن آخذ ايّ مبلغ منك، ولو كان لدي وفر لأعطيتك، فانت مقبل على مرحلة جديدة في حياتك.أجورسفر، أجور جامعة، أجور سكن جديد ستبحث عنه، وغير ذلك مما لا يحسب له المرء حسابا..

_ أرجوكِ.. أتوسل اليكِ، يكفيني كل كرمك السابق معي طوال إقامتي.. تكفيني هذه الفترة معك ومع الجدة ماري التي تملأ البيت ووجودي بالمرح والفرحة يكفيني إنزياح إحساس الغربة وبأني في بيتي وبين أهلي.. بل لم أحظ

بمثل هذه الرعاية هناك.. أتوسل إليك ياهيلين.. سأظل أُحس بتانيب ضمير لذلك..

قاطعتني وأفلحت دفعتها الأقوى هذه المرة في إزاحتي عن طريقها.

_ أنك شاب مزعج حقا.. قالتها بابتسامة عريضة وهي على الجهة الخارجية من عتبة الباب.. مالتْ بجسمها من هناك لتحتضنني..

_ وداعاً!.. لا تنس أن تكتب من هناك!.. قالتها وهي تسرع عبر حديقة البيت الأمامية.

***

إستغرقت رحلة القطار الليل كله.. وصل إلى محطة مدينة ساندرلاند في الشمال المطلّ على القنال الإنكليزي.. جلستُ في مقهى المحطة أتناول إفطاري أنتظر ساعة أو أكثر، فقد كان الوقت مبكرا لافتتاح أبواب الكلية التابعة إلى جامعة (دارام)..

.. أودعت حقيبتي في ودائع المحطة وتوجهت إلى الكلية بين أزقّة المدينة الهادئة الصغيرة بعد أن سألت عن عنوان مقصدي.

توقعت أني سأكون من أوائل القلائل القادمين إلى مركز الإستعلامات والتسجيل فيها في مثل هذا الوقت المبكّر من الصباح..

فُوجئت بغير ذلك..

.. كان هنالك صخب ضاج قرب بوابة الإستعلامات.

.. حشد كبير.. أغلبهم من الرجال، يقف في طابور طويل غير منتظم في انتظار دوره أمام منصّات التسجيل.

أخذت دوري خلفهم.

.. لم يكن اللغط والأحاديث التي تصل إليّ كلها باللغة االانكليزية.. الحوارات بالإيطالية أكثرها علوا وهرجا ومرحا، بين اليونانية والهندية والصربية..

.. السحنات بين أكثرية إنكليزية، بملابس أنيقة مكويّة هادئة رصينة، تقف بانتظام غريب متميز عن فوضى بقية أجزاء الصف الطويل، وجوهها البيضاء المحمّرة، والشعر المائل للصفرة او الكستنائي المحمّر تتحدث بما يقرب الهمس الذي يضيع في الصخب الأجنبي.

.. وجوه لوّحتها الشمس من حوض الأبيض المتوسط بشعورها المعثكلة السوداء.. عدد غير قليل بلون الصاج العتيق تضع على رؤوسها العمائم الملفوفة بعناية فائقة.

.. لا أجد وجها أسودا بين الحشد.

وأخيراً وصل بي الصف إلى الطاولة الأولى:

_ الأسم واللقب:؟

_ البلد:؟

_ الديانة؟

_ أعزب أم متزوج:؟

_:؟.. ؟.. ؟

أنتقل إلى الطاولة التي بعدها.

_ في أية كلية ستدرس:؟..: ما الفرع:؟.. لو كانت معك رسالة القبول سَلّمها لي رجاءً!

في الطاولة المجاورة التالية الأخيرة وعليها مثلث خشبي بشعار ملصق فوقه (إتحاد الطلبة البريطاني):

_ أي نوع من السكن تريد:؟ غرفة فارغة؟.. مؤثثة؟.. إستوديو؟.. أم غرفة في سكن عائلي؟

أجبته.

بحثَ بين علبة بطاقات أمامه ثم قدّم لي بطاقة خُط عليه إسم وعنوان.

_ راجع هذا العنوان، لو لم تتفقوا عدْ الى هذه الطاولة مرة أخرى لنجد لك مكانا آخر..

***

كان المسكن على رابية في أقصى المدينة..

صفّ من البيوت العمالية الكئيبة المتلاصقة ببعضها كعربات قاطرة طويلة تنحدر صوب المدينة..

مس روبيرتس، إمرأة سمينة لها وجه احمر بعينين محتنقتين وأنف منتفخ محمّر، تبان فوقه خرائط من خطوط قرمزية من أثر الإفراط في شرب الكحول الرخيص.

كانت غرفتي في الطابق الأرضي قرب المدخل واسعة ولكن بأثاث شحيح لا يتعدى خزانة ملابس وطاولة صغيرة (دون غطاء أو شرشف)، وسرير معدني عريض بفراش وأغطية تكاد تبلى لكنها نظيفة ووسادتين عليهما رسوم بالغة البدائية في الذوق.. شبّاكها ضيق بإطار خشبي مقشر الأصباغ يطل على فضاء موحش اجرد.. رائحة رطوبة جدرانها السميكة العتيقة تفاجئك عند الدخول.. مدفأتها الغازية بجهاز عدّاد ملحق يعمل بقطع النقد المعدنية.

(.. كثيرا ما لم يكن بحوزتي قطع معدنية تكفي لليلة قارسة البرودة.. تصل درجات الحرارة الدنيا في الشمال الإنكليزي إلى ما دون الخامسة عشرة تحت الصفر أحيانا.)

يسكن معي في الدور الأول وبغرفة أرتب وأحسن، طالب من(الهند)بعمامة انيقة بيضاء، وصل إلى المدينة قبل اسبوع من قدومي.

لربة البيت كلب ضخم متجهم السحنة، لم تنقطع زمجرته كلما شاهد مستر آزاد يخرج أو يدخل بعمامته التي لا أراه ولا الكلب يراه بدونها.

يَفدُ على ربة البيت - مس روبيرتس، (صديقها الأسبوعي) بوب، ياتيها عند ليل السبت ويخرج عند فجر الأثنين.

حييتُ زميلي في السكن بحرارة اثناء لقاءي به في مدخل البيت..

_ أنا صفاء طالب في الفرع الهندسي زميلك في الجامعة والسكن!.. أنت من الهند العظيمة بلد طاغور والمهاتما غاندي..

_ بل الحقير غاندي.. أنا من باكستان بلد محمد علي جناح!!.. قال ذلك بتعالٍ وبنبرة لا تخلو من غضب.

تحاشيت لقاءه لاحقا، وكان من حسن حظي أن إيجار سكنه لا يشمل وجبتيه.

غالبا وبعد تجربة وجباتي الصباحية مرات قليلة، والتي بعضها مع مس روبيرتس، حين تكون رائقة من ضباب كحول الليلة الماضية.. فضّلت أن أغادر البيت دن إفطار لأتناول الشاي في قدح كارتوني وبعضا من البسكويت – واقفا – عند منصة كشك مدخل الكلية قبل بدء المحاضرات بقليل.

***

تعرّفت ومن الأيام الأول في الكلية الى الطلبة العراقيين وعددهم سبعة في فروع هندسية مختلفة.. كانت مجموعة رائعة.. جادة ومليئة بالنشاط والحيوية في الوقت ذاته.

أتناول غدائي في فاصل الدراسة عند الظهر في مطعم صغير قرب مكتبة المدينة.. أحيانا مع بعض منهم..

.. وجبة شهية رخيصة فيه هي FISH AND CHIPS سمك وشرائح بطاطا مقلية.. بعد عدّة وجبات مع زميل عراقي، أخذ صاحب المطعم يرفع من فوق مائدتنا علبتي الخيار والبصل المُملّحين التي يتناول الزبائن فصا او فصين منهما مع الوجبات.. يرفعها، اذ كنا نلتهم نصف ما في العلبتين أو أكثر..

.. مقبلات مجانية لذيذة تسد بعض الجوع.. نصف الجوع.

لا تتوافق فترة غداء أصحابي معي أحيانا، فأختار زاوية من المطعم الشعبي الهاديء لأجلس وحيدا..

.. قريبا من مائدتي وفي نفس الوقت، كانت شابة جميلة حمراء الشعر في مطلع العشرينات، ينتثر فوق وجهها الطفولي الممتليء، حبات رذاذ عسلي أو قرمزي مضبب، تزداد وضوحا أو تتضاءل بين يوم وآخر، تتناول وجباتها لوحدها.. تعقبتها ببصري داخل المطعم، وواصلت ذلك من نافذته أثناء مغادرتها..

.. تصعد كل ظهيرة بعد الغداء سلالم مكتبة المدينة الصغيرة..

" حلو!.. آها.. بنغو!!.. لابد انها تعمل هناك اذاء

***

بدأتُ بالتردد مع كتبي الهندسية بعد نهاية المحاضرات أو في الفواصل بينها على المكتبة الهادئة شبه الخالية إلا من بعض القلائل المتناثرين وراء طاولاتها هنا وهناك..

.. جو رائع للقراءة والسرحان.

.. أراها بين الحين والآخر وراء طاولة إعارة الكتب..

.. أسمع إحدى الموظفات تناديها.. (مُورينْ!).

_ هل أجد عندكم كتاب (أبناء وعشاق) لـ.. وقبل أن أكمل لأقول D.H. LAURENCE بادرتني:

_ بالطبع وهل تخلو مكتبة انكليزية منه.

كان ذلك مع مورين وبعد جلسات إستكشاف وتحرّي وخطة، أسرح فيها من على منضدة القراءة في المكتبة شارداً في فضاءات كتاب غير معين أفتحه من الكتب الهندسية التي كنت أطلب الإذن بحملها معي إلى داخل المكتبة..

حاولتُ جاهدا أن أقرأ أجمل كتب لورانس، التي طالما قرأتها معرّبة بإنكليزيتي، التي كانت لا تتعدى حدود التخاطب اليومي وكتب العلوم الهندسية الرياضية..

.. افلحتُ في تتبع بعض سطوره الاولي، وافلحتُ اكثر من ذلك في تصيّد حركات مورين وطريقة تخاطبها مع مستعيري الكتب، وحركاتها المنسجمة الهادئة.. وسرحانها المتكرر وهي تستند بكوعيها على منصة الإعارة الخشبية الطويلة العاتمة.

_ إذا انت تلك المخلوقة السحرية التي تجاورني _ وهي بعيدة عني _ في بحار افكارها عند الغداء كل يوم..

قلتها مبتسما وأنا أُعيد اليها كتاب أبناء وعشاق..

_ انتَ من هواة د. هـ. لورانس

_ بل هو أكثرهم قرباً من كتّاب الإنكليزية..

_ أنت طالب جامعي هنا؟.. أختي الأكبر معك اذاً.. هي في قسم التصميم في أكاديمية الفنون..

.. كان أحد رواد المكتبة، ينتظر دوره قرب المنصة، فأردفت قائلا وأنا اتهيّأ للمغادرة:

_ سنكمل حديثنا غدا على مائدة الغداء في مطعمنا المشترك.

تطوّر الغداء هناك إلى أمسية تمشّي على الجرف الرملي للبحر..

***

غامت السماء قليلا وعلى عجل فغطّت بقية خطوط الألوان القزحية في الأفق البعيد.

.. سكنَ الجو وصَمتْ، ونزل فجأة نديف أبيض عبر الفضاء الفسيح كمظلة طيران نصف شافة تهبط بإيقاع منسجم رخو.. ما أن لامس السطح غامق الزرقة تحته، حتى اختفت تلك الملامسة الرقيقة لتترك كونين لا متناهيين، علوي نصف شاف أبيض، فوق آخر ساكن الزرقة غامق عميق..

.. هل هو جذل، إنهار، أو سحر غريزي ينفذ في أعماق الروح؟!.. شيء لم أره من قبل، إنهار طفل بإكتشاف جديد مذهل..

احتضنت مورين وقبلتها على عجل كجزء متمم للمشهد ثم سحبتها من يدها لأركض بها بفرح وبصرخة جدل فوق رمل الساحل الندي وعينايّ معلقتان بمنظر الكونين الفريدين.

توقفت منقطع النفس لاحتضنها من الخلف ولأضع خدي الساخن على خدها الندي.. بارد رقيق!.. مثلج حلو لذيذ!..

إظلم ـ الكونان ونحن نقف ملتصقين فوق الرملة الندية دون حراك..

إرتقينا جرف الهضبة الصخرية حيث يتربع فوقها مقهى صغير تصل إليه وشوشة البحر وهمسه.

تحدثت مورين عن نفسها وعائلتها،.. هم إيرلنديون، قدم والدها إلى هذه المدينة قبل استقلال إيرلندا في مطلع العشرينات بحثاً عن عمل.. كان الغور في مناجم الفحم في رحم الأرض الرطب المعتم ومع فتات الفحم الذي يكسرونه من جدران المنجم الصخرية له عواقبه الصحية.. بعد سنين طويلة في باطن الأرض أسقطه مرض المناجم شبه معوّق ليخرج على التقاعد براتب ضئيل..

ألاخت الأكبر (ساره) بدأت في مسيرة دراستها الجامعية.. كان على مورين أن تساعد في تكاليف حياة العائلة، فوجدت لها وظيفة في مكتبة المدينة، مضحيّةً بذلك بدراستها الجامعية، التي كانت ترغب فيها بدراسة الأدب الإنكليزي..

حدثتني عن علاقتها بشاب إيرلندي لم تتفق معه.. .. إنفصلا.. تزوج وأستقر في دبلن.

.. دعوتها إلى حفلة التعارف الراقصة في الجامعة..

قدّم الطلبة فعالياتهم من على مسرح الصالة الكبيرة باهرة الأضواء والأزياء.. حضور كثيف لشباب صاخب مرح..

.. الأيطاليون ابهروا الحشد المتفرج بمسرحية فكاهية قصيرة ضجّت القاعة بعدها بالضحك وتصفيق الأعجاب.. اليونانيون قدموا رقصة بملابس يونانية شعبية ريفية.. اليوغسلاف أغانٍ غجرية.. ثم أتى دور مجموعتنا، وكنت على المسرح بينهم..

كنا ستة نقف بصفين الواحد خلف الآخر.. سابعنا أخذ دور قائد فرقتنا الكورالية ببدلة سموكنج سوداء وعصا قيادة موسيقية (إستعارهما من أكاديمية الفنون)..

صفقوا بإعجاب للكورس بعد غناء (عَمّي يا بياع الورد..)، لكن الإعجاب كان أكثر بكثير حين انتهينا من الغناء الرومانسي:

(ليشْ تِحلبْ الزُمالةْ من الصُبُحْ.. ليشْ تِحلبْ الزُمالةْ من الصُبُحْ)

(ما تخافْ؟!.. ما تخافْ لا تزكَطك!!)

ترجّمها قائد فرقتنا للحشد المصفق المنبهر، على أنها أغنية عاطفية تراثية شهيرة في بلادنا.

بعد السهرة التي امتدت الى منتصف الليل، خرجنا ومورين وهي زاهية بملابس السهرة منتشية متوردة الخدين تتلامع خصلات شعرها الأحمر.. حمراء!!، حمراء بردا وانفعالا فقد بدء الشتاء مبكراً في هذه الأصقاع الشمالية..

في تلك الليلة وعلى نفس الرابية الصخرية المطلة على البحر، كاشفتها محتضنا إياها بعمق لتدفئتها من ريح باردة هبّت فجأة:

_ إنك أول حب حقيقي لي يا مورين.. لم تجب، غير أن استقبالها الدافيء لقبلتي الطويلة كان جوابا مقنعا..

بين مقهى الرابية، الذي أصبح مكان مواعيدنا المسائية وبين الصخرة الملساء الواسعة المطلة على البحر فوق منحدرها الصخري إلى الشاطيء وبين انتطاري لها على سلالم المكتبة المرمرية، وانتظارها لي عند مدخل الجامعة، كان إن دعتني إلى دارهم لألتقي بأبيها وأمها واختها، فنانة التصميم، على عشاء عائلي.

كان استقبالهم لي بكرم وترحاب إيرلندي دافيء.

.. حين كانت تُلّمّ بها وعكة صحية (انفلونزا مرتين)، وعند زيارتي لها، وهي تستلقي متكئة على سريرها في غرفتها الدافئة، أُترك دون (عذول)، إلا عندما تأتي والدتها بصينية فوقها أقداح الشاي وصحنا من البسكويت وبعض الساندويجات الدافئة.

غالبا ما كنت أُضيع احد قفازي الصوفيين، فأبقى ونحن نسير واضعا كفي العارية في جيب معطفي.. تكرر الامر.. وفي احدى لقاءاتنا في مقهى الرابية، أخرجتْ من حقيبتها اليدوية قفازين صوفيين جديدين، ثم أخرجت بعدها صندوقا معدنياً صغيرا مزخرفا.. ثبتت خيطين غليظين بلون معطفي بنهايتي ردنيهما، ثم خاطت نهاية كل خيط منهما بقفاز صوفي..

_ لن تضيع أيّاً من القفازين بعد الآن ايها السرحان!!

رغم هدوءات الليالي المقمرة ورومانسياتها فوق الصخرة البحرية الملساء، ورغم دفء معطفي الذي أفترشه تحتها ونحن نستلقي مستقبلين همس البحر ونغم الضوء السماوي الخافت، ورغم كل الاحتضانات الدافئة والعواطف الملتهبة، لم تسلم نفسها لي كليا.. بين كل ذوبانها في حرارة أنفاسي وأنفاسها وعواطفي كانت تصحو لتوقفني عند حد لا أتخطّاه من السروال الحريري القصير..

.. اقنع بعدها دون شكوى أو احتجاج.

نختلف وعلى أشياء أخرى ونتخاصم.. بل ونفترق، وكما في موعد غيبي نلتقي من جديد في مقهى الرابية، بل مرة، وفي وقت قارب منتصف ليلة زمهريرية كان لقائنا – دون ميعاد - فوق تلك الصخرة المطّلة بعد أن طال افتراقنا العصيب إسبوعا كاملا.

***

الأرض مغطاة بالصقيع وأكوام من الثلج هنا وهناك وكان المقهى مغلقا لأعمال إنشائية طارئة..

.. توقفنا قليلا عند بابه نحار في زاوية دافئة اوآمنة نختارها.

.. إقترحت عليها الذهاب الى غرفتي..

وضعتُ بضعة عملات معدنية لإيقاد الغاز لتدفئة الغرفة الرطبة الباردة.. جررتها الى السرير مُقنعا بالدخول تحت الأغطية إلى أن يشيع بعض الدفأ في المكان.. .. تدثرنا فاستعدنا بعضاً من مرحنا المفقود في الغرفة الكئيبة.. .. إحتضنتها.. قبلتها.. داعبتها بما هو ضمن حدودي المتاحة.. وجدتها قد أبدت بعض التلهف إلى احتضان أدفء وأعمق.

.. قفزت من السرير بحجة جلب معطفي المعلق كدثار إضافي، أخرجت منه في الظلمة مانعا مطاطيا بغلافه، كان يقبع من أسابيع في الجيب الداخلي إستعدادا للحظة إستجابة كاملة تتخطى فيها مورين خطوطها الحمراء تحت سروالها الحريري..

.. فرشتُ المعطف الواسع فوق أغطية السرير واندسست من جديد الى جنبها الدافيء في السرير، دافعا المانع خلسة تحت الوسادة..

.. دام احتضاننا العميق الملهوف فترة غير قصيرة، خِلت فيه أن اللحظة المنشودة قد وافت.

.. حاولت!!

.. لم تسمح لي باكثر مما سمحتْ به سابقا..

.. مع رغبتي اللاهفة وأقوالي التي تفيض حبا وشبقا، لم أُفلح في تليين تمنعها الصعب، الذي سرعان ما أصبح جازما..

إستلقيت على ظهري، آخذاً نفسا عميقا مستسلما ومستعيداً بعض هدوئي

.. لم يطل ذلك كثيرا، رضيتُ بوجودي قربها، فعدت أحتضنها بمرح وسعادة وحب غمرني بهزة أعلى وأجمل من الذروة الشبقية.

.. ظل المانع المطاطي منسيا تحت الوسادة.

***

حين عدت مساءً إلى غرفتي جابهتني ربة البيت بوجه تضاعف اكفهراره الكحولي المحتقن بالغضب، ثم بسيل من العبارات باللهجة العامية السوقية، فهمت منها بعض الشتائم البذيئة، وباني يجب أن أغادر المكان فورا..

_ ما الذي دهاك مس روبرتس؟!

_ هذا!! هذا!.. أخرجت من جيب قميصها المانع المطاطي بغلافه الورقي، ثم أردفت: هذا الذي تعبئه في عاهرتك التي قدتها أمس إلى هذا البيت المحترم.. تَخرجْ الآن من بيتي!..

_ لن أخرج الآن مس روبيرتس.. فقد دفعت لك أجرة هذا الإسبوع ونحن في أوله..

_ ستخرج لأنك كسرت قواعد الأخلاق والتصرف والسكن.. وسأشتكيك لذلك.

_ لن أخرج حتما هذا المساء.. لابد أن أجد غداً أيّ مكان أخلص فيه من هذه البؤرة التعسة.. قلتها بغضب شديد ودخلت غرفتي راداً بابها بعنف.

وجدت في اليوم التالي غرفة في بناية قديمة يسكنها عمال صيانة ومجاري.

أُصيبت مورين بالذهول ثم الحزن حين حدثتها عما حصل مع ربة البيت ثم وعدتني بأن توصي أختها لإيجاد مسكن مريح ومناسب.. كنت قد فاتحت بدوري بعض زملائي العراقيين بما حصل طالباً منهم إيجاد سكن بديل.

***

مرت أيام ثلاثة على الحادث، حين استدعيت إلى إدارة الكلية، وكان ذلك يحصل أحيانا، لرسوم متأخرة أو جديدة غير مدفوعة او لمتابعة التقدم العلمي الدراسي وغيرها من شؤون أخرى.

حين دخلت غرفة الادارة، كان المشهد يختلف عما عهدته في المرات السابقة..

.. هنالك عدد من الأشخاص يجلسون وراء منضدة طويلة.. عميد كليتي في الجامعة يتحرك أمامهم جيئة وذهابا بعصبية.. أحد أساتذة القسم يجلس مسترخيا، واضعاً ساقاً فوق الأخرى، على كنبة جانبية عريضة.

_ أنت صافا طالب القسم الهندسي التحضيري؟.. سأل العميد المتشنج

_ نعم أنا.

_ وكنت تسكن عند السيدة روبرتس؟

_ نعم هو كذلك.

_ لقد تقدمت السيدة روبرتس بشكوى ثنائية وبرسالة مطوّلة إلى اتحاد الطلبة الإنكليزي الذي أرشدك الى سكنها، وإلينا.. إلى الكلية التي تدرس فيها.

_ لقد غادرتها بعد سوء تفاهم غير ذي قيمة إلى سكن آخر.. بل وتركت بقية تكاليف سكني لديها دون أن أطالبها بذلك.

_ ليس سوء تفاهم بسيط كما تدعي.. لقد خرقت قوانين أخلاقية واجتماعية وأعراف.

بدأتْ معالم الصورة تكتمل في ذهني.. إنها محكمة تفتيش عصور أوسطية إذاً..

_ كيف تسوّل لك نفسك إغتصاب فتاة إنكليزية بيضاء.. ومن أين أتيت بالمانع المطاطي المعدّ لذلك..

قال ذلك، الاستاذ المسترخي على الكنبة.

إهتززت بالنقمة والغضب للحظة.. أدركتُ أن الحكم قد صدر حتى قبل دخولي.. اذاً ليكن مايكن!..

_ سيدي الأستاذ المحترم.. اولاً: لم تكن الفتاة إنكليزية بيضاء، فهي إيرلندية حمراء.. ثانيا: لم أغتصبها، وهل يغتصب محب خطيبته.. الكل يعرف بعلاقتنا.. أما عن المانع، فقد اشتريته من نفس المكان الذي تشتري فيه موانعك..

.. نهض الأستاذ المسترخي على الإريكة بغضب.. دمدم (القضاة) خلف المنصة..

_ إنك وغد قليل الحياء.. صرخ الأستاذ بغضب..

_ GET OUT YOU BLOODY FOOL صرخ العميد بحدة وهو يرمى الأوراق التي بيده إلى منضدة قريبة.

(إنزح خارجا أيها الأبله اللعين!!).. سيتخذ المجلس قراره بشأنك.

إجتمع الطلبة العراقيون وأرسلوا ممثلهم إلى العمادة يحتجون فيها على التعامل الشرس.. لم ينفع ذلك كثيرا.. لم يكن قرار العمادة الطرد، بل أخف منه قليلا.. النقل إلى كلية مطابقة في جامعة أخرى.. كانت الجامعة برمنغهام في الوسط الإنكليزي، وكليتي التابعة لها في مدينة ولفرهامتن القريبة منها.

بكتْ مورين بحرارة، وزاد إحمرار وجهها، وبان مطر النمش الأشقر أكثر وضوحا على الوجه المندّى الذي التمع.. كنت أمدها فيه بمنديلي بين الحين والاخر.. لم ينفع ذلك كثيرا، إحتضنتها.. قبلتها من عينيها المخضلتين ومسحت مدامعها وسيل أنفها الجاري بالمنديل المبلل.

منعتها من المجيء لتوديعي ليلة السفر بعد عدة أيام من القرار..

.. كان في وداعي طارق وهشام على رصيف المحطة.

***

كانت الظلمة الكثيفة لا تزال تغطي المشهد عبر زجاج النافذة العريضة حين أعلن مراقب العربة قرب وصول القطار إلى مدينة ولفرهامتن..

أشباح بيوت قميئة تعبر بتباطؤ.. بعض نوافذ فرادى مضاءة، ترمش عبر سحابات ضباب تعبر متسارعة إلى الوراء.. لم تكن الساعة قد جاوزت السادسة إلا قليلا.

أقفرتْ المحطة الصغيرة الكئيبة بعد أن غادرها آخر النازلين مجتازا بوابتها المشرعة إلى الضباب العاتم في الشارع القريب، الذي لا تخترقه أضواء أعمدة الأنارة.

كان عليّ أن ألمّ حواشي معطفي حول ساقيّ وأنا أتربّع، اقرفص منكمشا على نفسي فوق مصطبة خشبية..

.. المكان مقفر كئيب بإنارته الشحيحة التي امتصها طلاء الجدران العاتم والأبواب العديدة السوداء المغلقة.

.. كان البرد لعينا، وعليّ أن أنتظر لأكثر من ساعتين لأتوجه إلى عنوان الكلية الذي لا أعرف سبيله.

.. يبدو أنني غفوت في إنكماشتي تلك.

.. شباك التذاكر أمامي منار، وضوء صباح شحيح إستطاع أن يخترق الضباب المسوّد fog ليدخل إلى صالة المحطة.

.. هنالك بعض المسافرين ينتظرون هنا وهناك.. أحدهم يحتسي كوب شاي يمسكه براحتيه ويتصاعد منه بخار لذيذ.. أوشكت أن أقوم وأسأله من أين حصل على هذا الكنز الثمين، غير أن نظرة الى ساعة المحطة الكبيرة أوحت لي بغير ذلك.

.. بعد أن أخذت بعض الإرشادات من شباك قطع التذاكر عن كيفية الوصول إلى العنوان الذي أطلعته عليه، خرجت ليلسعني زمهرير الصباح الباكر الجليدي الرطب.

لففتُ لفاعتي على وجهي وعنقي، ودسست كفيّ في القفازين الصوفين، المُخاطين بأردان المعطف.

.. كدت أبكي إذ تذكرت مورين، ونحن في مقهى الرابية، تخرج إبرة من العلبة الصغيرة من حقيبتها اليدوية بصمت لتزر القفازين بخيط طويل متين في نهايتي الردنين كي لا أُضيعهما مرة اخرى.. كان اللفاع الصوفي كالقفازين هدية منها.

بعد تزحلق لولبي عدة مرات، وسقوط على صقيع الأرصفة في الأزقة الملتوية، وصلت أخيرا إلى موقف للحافلة المحددة التي ستنقلني إلى عنوان كليتي وسط المدينة.

الصالة الدائرية الكبيرة في المبنى الكبير، شبه مقفرة، إلا من عاملتي تنظيف تقومان بمسح ارضيتها المرمرية.. هنالك رجل يدور فاتحا أبواب قاعات التدريس ببدلة زرقاء ذات أزرار نحاسية عديدة لامعة وكاسكيت ابيض وأزرق، ذكّرني بأحد عاملي سفينة ميستراديس التي أبحرتُ فوقها قبل أكثر من عام.. إنه بواب الكلية.

.. يبدو أنني وصلت قبل بدأ الدوام بفترة غير قليلة..

_ متى تُفتح أبواب موظفي العمادة رجاءً؟

_ بعد نصف ساعة تقريبا..

_ هل تتلطف عليّ بأن تجد لي مكاناً لحقيبتي إذ لم أجد مستودعاً لحقائب المسافرين في المحطة.

_ هل أنت طالب مستّجد قادم؟.. لم ينتظر إجابتي، قادني خلفه الى غرفة ضيقة تتكدس فيها أدوات المسح والتنظيف.

_ ضعها هنا فهو مكان آمن حتى تنتهي من مشاغلك في ساعة أو ساعتين.. أليس لك مكان تسكن فيه في المدينة، او أحداً من معارفك فيها؟!، لو كان الأمر كذلك فلدي بعض العناوين لغرف للإستئجار يسألني أمثالك من الطلبة الجددعنها أحيانا.. أنجز مهماتك مع العمادة والتسجيل، وعد إليّ بعد ذلك

***

بعد أن انتهيت من التسجيل في قسم شؤون الطلبة، أخبرني مسؤولها بأن هنالك عدة محاضرات اليوم في فرعي في نفس هذه البناية، تليها محاضرة أخرى في بناية أخرى تجدها مع عنوانها في جدول المحاضرات الإسبوعي الذي سلمني إياه قبل قليل.

أطلعته، أنني لن أتمكن من حضور أية محاضرة اليوم لأن عليّ أن أجد مكاناً سكنيا أستقر به أولاً.

_ للأسف نحن لا ندخل في قضايا السكن وما وراءها من تعقيدات سواء من المؤجرين أو الطلبة الساكنين.. عليك أن تحلّ هذه القضية بنفسك.

بحثت عن بواب الكلية وبعد أن استلمت حقيبتي من غرفة التنظيف زوّدني بعنوانين، أحدهما لعائلة بولونية، والثاني لعائلة أخرى و رقم تلفونها مع ملاحظة: (يرجى الإتصال قبل القدوم إلى العنوان).

قرب محطة الباص المجاورة للكلية، كانت هنالك لوحة إعلانات لسكن للإيجار مع عناوين بعضها، وأرقام هواتف البعض الآخر وأشياء للبيع، مائدة طعام، دراجة بخارية، أريكة عريضة.. و..

نقلتُ بعض العناوين والهواتف إلى ورقة أحملها، وأضفتها إلى عنوانيّ بوّاب الكلية.

***

عنوان العائلة البولونية غير بعيد.. ركبت الباص.. دلّني سائق الحافلة إلى الموقف الذي انزل عنده.

بيت قديم في زقاق ضيق ببيوت رصفت الواحد لصق الآخر كعلب الكبريت التي لطّخها دخان المطابخ ودهونه.

.. بعض نوافذ دوره الأول قد غُطيت أجزاء منها بقطع من الكارتون العتيق الأصفر.

_ نعم ما الذي تريد؟!.. من جانب الباب الموارب سألتْ إمرأة كهلة ممتلئة بفستان من القماش الرخيص، عُلقت فوقه صدريّة المطبخ الملطخة.. كانت لغتها الإنكليزية ركيكة إستغرقت مني بعض اللحظات لفهمها..

_ إعلان عن غرفة للايجار!

.. أطلعتها على ورقة العنوان وأشرت الى الحقيبة عند بوابة البيت، ثم إلى نفسي..

فتحتْ الباب كاملا، وأشارت عليّ بالدخول.

.. المكان الذي دخلت إليه دافيء، وقريب من المطبخ.

.. إنبعثت روائح شهية ساخنة، نفذت عبر أنفي وخيالي، فأنا لم أتناول أي طعام منذ ليلة أمس.

.. كدت أسألها..

_ "هل تبيعني بعض ما تعدين؟ ".. تمالكتُ نفسي وتبعتها صامتا على السلم الذي كانت تصرّ أخشابه عند كل درجة.

.. ما أن فتحت باب الغرفة نصف العاتمة الصغيرة، حتى هبّت رائحة صنان ثوم وبصل وبعض من العفن الرطب ومزيجا آخر لم أتمكن من تشخيص مصدره.

برد قارس هنا.

.. كان زمهرير الشتاء قد اقتحم عددا من أجزاء نوافذ الغرفة المغطّاة دون إحكام بقطع كارتون عتيق.

.. هنالك خزانة وحيدة إضافة إلى السريرين، رأيت من أحد بابيها المشرع، أكياس بصل وثوم وبضائع لمأكولات أخرى.

_ يسكن معك في الغرفة راندولف وهو من ترينيداد، وذلك سريره وأشارت إلى سرير حديدي في نهاية الغرفة.. ثم أضافت:

_ أما انت فسيكون هذا سريرك!

كان ذلك الذي يسمى سريرا، عبارة عن صندوقين معدنيين كبيرين رُصفا قرب النافذة، ووضع فوقهما فرش بأغطية نظيفة بيضاء.

تلمّستُ الفراش.. نظرت إلى الصندوقين، يبدو انني أطلت النظر إليهما

_ سيكون بإمكانك وضع ملابسك واحتياجاتك الأخرى في الصندوقين.

أجابت ربة الدار عن نظرتي الحائرة المتسائلة، ثم اضافت:

_ إيجار المكان باونا واحدا.. و باونا ونصف الباون لو استعملت المطبخ مع الغرفة لأعداد وجباتك.

نزلت وشكرتها على العرض، وندمت أنني لم أوافق مبدئيا، ثم أدفع ثمن الوجبة العطرة التي كانت تعدها، ثم أعتذر بعدها بأية حجة كانت عن إيجار السكن في غرفة الزمهرير والبصل والثوم.

.. سارعت إلى أقرب مطعم شعبي وجدته، وغرقت في بخار وسوائل أرخص حساء وأكبره لديهم، والتهمت معه عدة اقراص من الخبز الأسمر الموضوع فوق الموائد.

.. كان ذلك المطعم الشعبي الرخيص المناسب لمدخراتي الناضبة وجهتي في أيام عديدة تلت.

***

_ مساء الخير سيدتي

_ نعم.. من المهاتف؟

_ أعتقد أنكِ مسز أندرسن؟!.. تساءلتُ عبر الهاتف.

_ نعم أنا هي، ما الذي تريده؟

_ لدي عنوانك سيدتي عن غرفتك المعلنة للإيجار.. فهل يمكن أن آتي لاراها ونتفق.. انا طالب في كلية الهندسة في مدينتكم.

_ من اي بلد انت؟

_ من العراق سيدتي.

_ وما لونك؟

فوجئت بالسؤال الذي حيّرني.. عرفت أن الأمر لا يبشر بخير، أوالأصح ميئوس منه فقررت الرد..

_ لوني جميل سيدتي العزيزة.. بل لعله خلاب كألوان (تكنيكولور) السينمائية (كانت هذه صرعة السينما الملوّنة آنذاك)

_ Bloody fool أيها الأحمق اللعين ثم أغلقت سماعة التلفون بوجهي.

كنت حذرا بعدها في الإختيار عند تتبع اعلانات موقف الباصات في المرات الأخرى.

.. فوجئت – قليلا – وأنا اقرأ في إعلانات السكن.

.. العديد منها يضع شرطه بعد وصف السكن المراد إيجاره، وما أكثر ما تجد:

(لا سودْا!)، (لا ملونون إ)، بل وتجده أحيانا أكثر تحديدا (لا إيرلنديون!)، (لا آسيويون!)..

بدأت الظلمة بزحفها، واشتدّ البرد وتجمد الثلج الساقط ليصبح صقيعا خطراً قابلا لأن يزلقك ويلقيك أرضا، وكنت أعرف بعض عواقب ذلك.. توجهت إلى عنواني الأخير الذي لا يحمل شرطا نابذا تحته..

عمّت الظلمة حين وصلت إلى العنوان بعد جهد في المواصلات وحذر في االسير.

رنّ جرس البيت.

.. ظهرت إمرأة عجوز في ضوء الباب الموارب.

_ ماالذي تريد؟

_ مساء الخير سيدتي.. جئت بصدد غرفتك المعلنة للإيجار.

نظرت إليّ.. وضعت عويناتها.. تفحصتني بإمعان.

.. أغلقت الباب بوجهي دون أية كلمة.

لم يبق أيّ وقت لبحث آخر في الليل البهيم المتجمد.

.. ليس لي، أنا وحقيبتي الثقيلة، إلا مكان واحد متاح يؤويني..

***

دخلت المحطة شبه المقفرة، أخذت مكان الأمس وتربّعت فوقه (أعرف تماما، لا يسمح لك بالاستلقاء والنوم في المحطات آنذاك، وإلا ستجد الشرطي يهزك لتستيقظ، يحييك ويأمرك بالخروج من المحطة)، لكن أن تغفو وانت جالس وكأنك في انتظار القطار القادم، فذلك حقك المشروع والمسموح به قانونا وعرفا.

لمست أطراف معطفي حول ساقيّ وبدأ النعاس يدبّ في عينيّ..

***

أعرف الآن موعد فتح صالات المحاضرات.. حملت حقيبتي من المحطة عند الصباح من جديد متوجها إلى مكان أدفء.

وضعت حقيبتي -كما الامس – في غرفة التنظيف.. توجهتُ بعدها إلى صالة المحاضرات وفق الجدول الذي استلمته أمس من العمادة.

كانت القاعة نصف الدائرية الكبيرة دافئة شبه عاتمة، لم أتمكن من رؤية كامل تفاصيلها، ولم أرغب في ذلك.. كان همي الوحيد أن اقاوم إجهادي ونعاسي حصيلتيّ الليلة السابقة، لأرتقي السلالم بين مصاطب القاعة، كي أصل إلى مؤخرتها العالية، وأجلس على المصطبة البعيدة وأضع رأسي على المنصة الخشبية لكتابة المحاضرات أمامها.

صحوتُ على صوت طرق.. القاعة مليئة بالطلبة.. الأستاذ يقف أمام منصة المُحاضر، يدقّ بجمع كفه عليها، وسط همس الحاضرين الملتفتين صوبي..

_ هل أنت طالب جديد لدينا؟

_ نعم استاذ.

_ إذا عليك أن تنتبه إلى المحاضرة وألا تغفو!!

_ بالطبع أستاذ.. إني أعتذر.

على أن محاولة أن أستجمع قواي على الإنتباه لم تدم طويلا.

صحوتُ على أحد يهزّني برفق لأستيقظ..

.. كان الأستاذ يقف بجانبي في القاعة الخالية.

_ هل أنت مريض؟

_ كلا ومعذرة بروفيسور، ولكني لم أنم لليلتين متتاليتين.. لا مكان لي سيدي لأنام فيه.

_ راجعني في غرفتي بعد أن تستريح وتستيقظ تماما.

" مشكلة اخرى ولا شك.. لعل المسألة نقل آخر إلى مكان جديد، أو ربما الإعتذار عن قبولي في هذه الكلية أيضا "

غسلتُ وجهي وأصلحت هندامي المبعثر في مرافق الكلية وتوجهت إلى غرفة البروفيسور جيروم سميث.

_ تفضل!.. واسترح هنا، وأشار إلى مقعد غير بعيد عن طاولته الواسعة، وفوقها بعض الكتب ورزم من الأوراق.

_ متى وصلت المدينة؟

_ أمس سيدي.

_ ولم تجد سكنا فيها!.. ليس ذلك غريبا فليست ولفرهامتن مدينة جامعية بحق، وليس هنالك الكثير ممن يستقبل طلبة كليتنا لديهم للسكنى..

لقد اتصلتُ بـ (مستر اوكيسي) وهو صديق لي أعرفه من زمن طويل وأحترمه.. باحثٌ في الأدب له مكانته عندي وعند كثير من الآخرين.. وافق على أن تسكن عندهم.. يسكن هو وزوجته في ضاحية المدينة ولا أحد غيرهم، فولدهم الوحيد وهو في مثل عمرك ليس بصحبتهم دائما.

أطلقتُ زفرة ارتياح.. " إنزاح كابوس النقل والطرد.. بل من كابوس إلى نعيم".

_ هنالك شرط واحد!! واصل الأستاذ قوله.

_ وأنا موافق على أيّ شرط.. سارعت بالرد.

_ أن تغادرهم ظهيرة كل سبت، وتعود أليهم ليل الاحد.. إنها ليلة واحدة تقضيها أينما كان.. هنالك العديد من الفنادق المعتدلة في الراحة والسعر.. هل أنت موافق على هذا الشرط؟

_ بالطبع استاذ، بل وسعيد جدا بهذه الفرصة وبالجهد العطوف الذي قمت به وشاكر لك وممتن.

***

لم أُصدق عيني حين وقفت أمام هذا البيت الضخم.. القصر الفخم الذي يبان عبر أسوار حديقته الأمامية العالية، أدواح من الصنوبر والبلوط البري والأرز والدردار، ونباتات عديدة متسلقة، بألوان منسجمة بشكل مدروس ومعتنى به.

كان في استقبالي بوجه مبتسم وقور، رجل مائل إلى السمنة في الستينات من عمره.. كنت قد هاتفته قبيل أن أقدم إلى داره.

قادني إلى صالة استقبال واسعة مؤثثة بطابع إنكليزي تقليدي وبشكل يدلّ على ذوق رفيع لأناس موسرين.

حدثني عن نفسه وعن زوجته وبيته قبل أن يسألني عن موطني ودراستي واهتماماتي.

.. إيرلندي عريق.. يمتُّ بقرابة إلى كاتبها الرائع برنادشو، الذي هو من عشاق أدبه وشخصه.. زوجته إنكليزية من الشمال..

.. لم يتطرّق إلى ولده.. لم أسأل أنا عنه ايضا.

_ لعلك تحتاج إلى بعض الراحة الآن.. سأُريك غرفتك وسنواصل أحاديثنا في أوقات كثيرة متاحة.

كانت غرفتي نوع جديد من الترف عليّ.. لا بسعتها وجمال موجوداتها وجدرانها التي تسبح في زرقة سماوية خفيفة وحسب، بل وبالنوافذ العريضة التي تنيرها بضوء الفضاءات الفسيحة.. ثم ما هذه الحديقة الخلفية الخلّابة التي تملؤها أشجار التفاح والكمثرى والدراق، والنباتات التي تتسلق جدرانها العالية.

لم أصح من غفوتي إلا وقد حل الغسق.. أحسست بجوع شديد، إذ لم أتناول شيئا منذ الضحى.. خجلت أن اسأل عن ترتيبات وجباتي ومواعيدها، وغسيل ملابسي وغير ذلك.

.. لم أتجاسر على السؤال عن أجرة الإقامة الإسبوعية، فقد منعني الحياء من ذلك.

لم أنتظر طويلا إلا وطُرق الباب علي..

كان (مستر اوكيسي) عند عتبته.

_ لو أنك اخذت كفايتك من الراحة ومستعد للنزول فبإمكانك أن تتناول عشاءك معنا.. فيما لو رغبت بذلك بالطبع.

كان الحديث ممتعا على المائدة بين ذكريات شبابه أيام دراسته، وعن المقالب التي يتعرض لها الطلبة وخصوصا وهم خارج مدنهم أو بلدانهم.. إنتقل الحديث ليدورعن نوادر قريبه الحبيب برنادشو الذي يدعوه بـ(جورجي).

.. بعض الأسئلة عن مجيئي وعن مدينتي في بلاد مابين النهرين..

.. أخذ أوكيس هنا يزودني بتفاصيل كنت أجهلها عن الحضارات القديمة التي بزغت في ربوعنا قبل غيرها.

***

إنتظمت دراستي وتقدّمتْ، وكان البروفيسور سميث يبتسم لو مررت مصادفة إلى جانبه..

.. عدت أُراسل مورين مطمئناً إياها على أوضاعي وبالطبع عن شوقي الشديد للقياها..

.. أبعث اليها بعض هدايا صغيرة وبعضا من تخطيطات كنت قد رسمتها في أماكن لقاءاتنا السابقة.

تزداد علاقتي مع مستر اوكيسي توطداً يوما بعد يوم.. أخذت أنزل الى مكتبه الخاص في الليالي، وأنا اعرف مواعيد استرخاءه لتدخين أحد غلايينه العديدة، التي أقام لها معرضا في خزانة زجاجية قرب النافذة.. أستمع اليه أكثر مما احدثه.. يعرض علي صوره العائلية وخصوصا تلك التي يكون فيها برناردشو بينهم.

.. يمنحني هذا الكتاب أو ذاك لأطلع عليه من كتب برنادشو التي كنت قرأت بعضا منها مُعرّبا..

أيام الصحو، وحين لا تكون لدي محاضرات في الكلية، يدور معي في بستان بيته الخلفي، ليطلعني كيف أقلّم أشجاره، فانه شهر فبراير موسم ذلك.. يسلمني مقص الأشجار.

_.. عقدتان ثم تقصْ ما بعدها من الأغصان!.. الأغصان اليابسة أو المريضة عليك استئصالها!.. لاتتعرض للذروات العالية من الأشجار!

كان يدور معي بينها ويتحدث عن كل منها وتاريخ زرعها وأصلها وكأنه يتحدث عن أصدقاء عاشرهم طويلا.

لم يدمْ عزّ بقاءي العظيم معه طويلا..

***

في يوم سبت لعين، أصابتني وعكة خفيفة، تلكّأتُ فيها عن مغادرة الدار.. .بقيت في غرفتي.

.. " حسنا ساظل في غرفتي ولن ازعجهم بنزولي ".. ما الذي سيضير؟!.. ليستقبلوا ضيوفهم.. ليأخذوا كامل حريتهم في البيت الوسيع، فلن يصل حتى إلى سماعي في الغرفة القصية أي حديث أو هرج احتفال يقيمونه.. الحمام بجواري ولدي بعضا من البسكويت وقطع من الكعك المُحلّى،.. ماء بدل الشاي!، هذا سيغنيني عن الإبتعاد الذي أكرهه إلى الفندق، كل إسبوع.. وأنا متوعك، وهي ليلة واحدة لا غير خلال أشهر وجودي معهم.. ،.. "

حسمت الأمر مع نفسي، وأمسكت كتابا من كتب (صديقي اوكيسي).. دخلت بين الأغطية الدافئة وبدأت في قراءة (العودة الى ميتوشالح)

.. حلّ الظلام.. دبّ النعاس وغفوت.

***

صحوت في اليوم التالي على حركة وأحاديث غير التي اعتدتها كل صباح، حين لا تكون عندي محاضرات فأخرج متأخراً في الضحى أو عند الظهيرة.

".. انه يوم الاحد!.. لعلهم يستعدون للذهاب إلى الكنيسة.. كلا فمن مجمل الحديث معهم في الأيام الفائتة، أوحت بغير ذلك، فليس هنالك أي معلم يشير إلى ذلك.. لا صليب معلق فوق رف المدفأة، ولا صورة للمسيح أو قديسيه.. لا كتاب إنجيل أو صلوات.. ولا شيء من ذلك خلال أحاديثي معهم والتي أتذكر الكثير منها.. على كل حال فإن الأمر لايعنيني لا من قريب أو بعيد.. أضف إلى ذلك أنني خارج الآن ولن أعود إلا في وقت متأخر من الليل، وأكون بذلك ضمن حدود الشرط الذي وافقت عليه للسكن. "

.. عادت اصوات الحديث والحركة إلى المعتاد بعد ساعة وبعض الساعة.

ارتديت بدلة الشيخ الكريم وأحد قمصانه، ومعطف الشمواه واللفاع الجميل الذي أهدته لي مورين.

.. رششتُ عطر مورين ونزلت وأنا أُزمع أن يساعدني الحظ فاتسلل إلى الخارج دون أن يلحظني لا اوكيسي ولا زوجته.

***

كان الجو صحواً مشرقا..

.. باب الصالة المؤدي إلى الحديقة الخلفية مفتوح على مصراعيه رغم الثلج والصقيع الذي ألمحه من خلالها، وذلك لدخول حزم الشمس إلى الصالة..

كانت مسزّ اوكيسي تجلس في الطرف الثاني وبيدها سنارتيّ حياكة تتدلى منها قطعة منسوجة بألوان..

.. غير بعيد عن مكانها مقعد متحرك يجلس عليه شاب بوجه غريب المعالم، طويل نحيف مسبل العينين، يرتدي بدلة سوداء فاخرة، يضع ذراعاً على مسند المقعد ويتهدّل الذراع الآخر إلى جانبه.

.. إنتبهتْ ورفعت مسز اوكيسي رأسها..

.. جابهتني بعينين واسعتين بان عليهما فزع غريزي مبهم..

.. إمتقعْ وجهها وفغر فاها وسقطت قطعة الحياكة وسنارتيها إلى الأرض.

_ أُسعدتِ صباحاً مسز اوكيسي!

لم أسمع أيّ جواب، وظلَ الإنشداه وبقايا الفزع على الوجه الممتقع بالفم المفتوح، إزدادت معالم وجهها عمراً عشر سنوات خلال لحظات مواجهتي تلك.

.. إضطربت بدوري كل الإضطراب دون إدراك للسبب وراء ذلك، وحاولت الهروب مسرعا عبر الصالة، غير أن المقعد المتحرك والشاب المبهم الوجه، ببدلته السوداء، إعترضا طريقي..

.. هَمهمَ الشاب ذو البدلة السوداء.. ومالَ رأسه ذات اليمين والشمال مُرتجفاً..

.. تلوّتْ ذراعه الموصوعة على مسند المقعد، وتذبذبتْ يده المتهدّلة الأخرى في الجهة الثانية، وكأن حركتهما لا علاقة لهما ببعض ولا بالجسد المُرتخي، ذو الرأس المائل المهتز فوق المقعد..

زاد اضطرابي..

".. أعليَّ أن اتجاوزه وأسير في طريقي خارجا؟! . أم عليّ التوقف أمامه؟؟ "

توقفت.

_ Good morning! إنحنيتُ صوبه بالتحية..

تموّج الجسد ببدلته السوداء التي انبعجتْ طياتها هنا وهناك..

.. زاد التذبذب في الذراعين المنفصلتين عن البدلة السوداء المتموّجة.. حاولتْ الذراع اليمنى أن ترتفع وتُحرك كفّها عن مسند المقعد.. تجعّدتْ تفاصيل الوجه من جانب، وتهدّلت من جانب آخر قريب من الفم.. انفغر الفم، وأنحدر سيل من اللعاب، إنهمر على الحنك والبدلة اللامعة، وصدرت منه همهمة متكسرة لا علاقة لأصواتها لا بالكلمة ولا بالنغم الإنساني..

تناهى إلى سمعي نشيج مسز اوكيسي الذي أخذ يتصاعد مهتزا..

رفعتُ رأسي الساقط من ذهوله.. نظرت صوب زاويتها..

كانت تجلس منهارة مطويّة على نفسها منكّسة الرأس تكاد تسقط عن حافة المقعد.

.. خرجتُ من باب البيت مسرعا.

جلستُ فوق مصطبة الحديقة الأمامية منكّس الرأس.

أدركتُ هولَ ما حصل.

هزّتني نوبة بكاء عنيفة قبل أن أغادر الدار.

***

تعمّدتُ أن أعود متأخراً أكثرمن ليالي الآحاد السابقة، على أمل أن أجدهما نائمين..

كانت الصالة كاملة الإنارة، على غير المعتاد في مثل هذه الإوقات.. مسز اوكيسي، تجلس في نفس مكانها الذي تركتها فيه في الصباح و سنارتيّ الحياكة بيديها.

_ Good night Mrs O' Casey.. ليلتك سعيدة سيدة اوكيسي، ثم حاولت تجاوزها لأصعد إلى غرفتي.

_ هل يمكنك الأنتظار لحظات!، لي بضع كلمات معك قبل صعودك

_ كما تشائين سيدتي.

_ هما كلمتان لا غير: عليك المغادرة!.. وبأسرع ما تستطيع.. بالطبع قبل أن ينتهي هذا الإسبوع. قالت ذلك بهدوء كبير.

_ كما تشائين سيدتي العزيزة.. ولو أن هذا يؤسفني كثيرا بالطبع.

صعدتُ إلى غرفتي..

.. لم تكن إلا لحظات، حتى سمعت طرقاً خفيفا على الباب.

.. مستر اوكيسي بملابس استراحته على الباب.

_ هل تسمح لي بكلمة معك، لو لم يقلق ذلك موعد نومك.

_ بالطبع تفضل

جلس صامتا على مقعد قرب النافذة فترة لم تطل..

_ " إنتظرنا طويلا أنا و مارغريتا قبل أن تظهر عليها علائم الحمل وهي في سن جاوز الشباب.. كانت فرحتنا فوق كل تصور. ثم كانت الولادة، التي اعددنا لها كل شيء نحلم به، بيت واسع بحديقة غناء.. وغرفة للطفل المرتقب، نموذج يمكن أن يكون مثاليا.. وغير ذلك.

.. خرج طفل الأحلام بعوَق ولادي لا شفاء منه..

.. زاد تعلّق الأم بهذا الطفل البريء يوما بعد يوم لحد الهوّس، منحته كل ما لديها من حنان الإمومة مضافاً إليه عطف على العوَق الذي يعاني منه..

حين كبر رأينا أن سعادته ستكون أوسع لو أننا ألحقناه بمصح خاص بأمثاله، لتكون له الصحبة والعالم الشبيه الذي لا يُقارِن فيه نفسه بغيره من الأصحاء، ممن لا عوَق لديهم.. لقد ضحّتْ مارغريتا في سبيل إسعاده، بسعادة وجوده معها، وإحاطته بكل أمومتها وعطفها التي يهبهما الله لكل أم، واكتفت بأن يُجلب إليها مساء كل سبت ليعود بعد اربع وعشرين ساعة إلى مصحه..

لم تسمح لأي بشر أن يرتاد البيت خلال هذه الأربع والعشرين ساعة، لا لأنها تَستّعر منه، بل كي لا تسمح له بألم المقارنة، او تعرّض نفسها لذلك بالطبع، رغم أنها تتوق كل التوق إلى رعاية شاب في مثل سنه، كمثلك أنتْ.. صمت قليلا ثم أردف..

_ لعلك تقدّر ذلك وتعطيها العذر.

_ كل التقدير مستر اوكيسي، وأنا الذي عليّ أن أعتذر.

***

أخيراً إهتديت إلى غرفة في بيت كبير عتيق، في زقاق طويل من بيوت غالبية ساكنيها من عمال المناجم والمصانع الثقيلة حول المدينة.. بيوت كئيبة، ذات جدران عاتمة ونوافذ طويلة ضيقة محكمّة بقضبان حديدية.

ربة البيت سيدة عجوز تجاوزت منتصف ستيناتها، بعوينات سميكة وسماعتيّ أذن، ترتبط بجهاز، صغير تضعه في جيب فستانها العلوي وتتحكم في أزراره.

_ قبل أن أجتاز الممرالطويل بإنارته الشحيحة، خاطبتني بما يشبه الصراخ:

_ الغرفة مع إستخدام المطبخ باونا ونصف الباون.. وجهاز التدفئة يستخدم في غرفتك بالعملة المعدنية.. الدفع مقدماً لعشرة أيام حتى السبت الذي يلي هذا الإسبوع، ومساء كل سبت بعد ذلك.

_ كم تأخذين عن غسيل ملابسي كل أسبوع؟..

_ نعم لم أسمع جيدا ماتقول عن الملابس.. ثم أشارة إلى سماعتيّ اذنيها قربتُ فمي من صدرها وكررت سؤالي..

.. إرتدّتْ الى الوراء وقالت بغضب بصوت عال:

_ لِمَّ تصرخ هكذا في الجهاز.. لقد شقّ الطنين أُذني.. ماذا لو أتلفتَ الجهاز، لقد كلّفني غاليا!.. غسيل الملابس ليس بالإسبوع بل بالقطعة ونوعها.. أما كيّ الملابس فله حساب آخر.

***

بالإضافة إلى مسز كوينز وابنتها صوفي إبنة العشرينات الجميلة، كان هنالك ساكن آخر يتمتع بامتيازات كثيرة مما ليست لدي.

.. يكاد يعتبرونه فرداً من عائلتهم الصغيرة..

.. إنه جيمس.

جيمس.. رجل من الصعب أن تعطيه تقدير عمر مقارب، وجه مدوّر ممتليء مغطى بالنمش بعينين عسليتين جذلتين وشعر مجعّد مائل للإحمرار.. جسمه رَبع قوي.

.. أعرف حين يتواجد بينهم في الدار، إذ يملؤه بالصخب والضحكات المجلجلة لنكاته التي يرويها، والتي أسمع بعضا منها وأنا أُعدّ طعامي في المطبخ المجاور لقاعة الجلوس.

.. سرعان ما أصبحنا صحابا، لا لأننا نلتقي أحيانا في المطبخ عند الصباح، أو حين يقف سائلا عن أوضاعي عند عتبة باب غرفتي المقابلة لغرفته:

_ هل تسير الأمور بشكل جيد ايها الشاب؟.. دروس وعمل مسائي وكتب وأوراق مبعثرة، منظرها وحدها يبعث الصداع عندي.. كيف لك أن تتحمل ثرثرة هؤلاء المتعجرفين الإنكليز.. أعني أساتذتك، كيف؟!.. ساعات عديدة وهم يحصرونكم كالدجاج في مصاطب طويلة لا يخرج من تحتها البيض.

أدعوه إلى شاي (نُومي بَصره) وجدته عند عطار هندي في المدينة، فيواصل معي حديثه الساخر، المليء بالنكات على أمة الأسد العجوز الذي بالتْ عليه الثعالب..

.. بدأنا نخرج سويا إلى بار، معظم زبائنه من الإيرلنديين..

.. يكثر جيمس من دَلق أقداح البيرة الإيرلندية السوداء في جوفه، ثم يبدأ بعدها بالغناء باللغة الإيرلندية وغالبا ما ينضم إليه العديد من الإيرلنديين السكارى مثله..

.. تنتهي السهرة أكثر من مرة بمعركة بالقبضات بين سكارى الجزيرتين المتناحرتين.

.. أعود بجيمس أحيانا مستندا بذراعه على كتفي، وهو لاينقطع عن غناءه وصخبه وشتائمه البذيئة على الإنكليز الذي يضج به الزقاق الضيق الملتوي شحيح الإنارة..

.. تُنار بعض النوافذ أحيانا..

.. أستعد لعراك آخر.. في الزقاق هذه المرة.

.. جرت الأمور للمرات كلها بسلام في مسيرتي به إلى البيت.

.. أدخل به.. أضعه (أرميه) على سريره بكامل ملابسه.. أضع الأغطية فوقه وأنسلّ إلى غرفتي.

كانت كل مدخراتي قد نضبت تماما، رغم تقشفي الشديد.

***

وجدت عملاً مسائيا بأجر إسبوعي متواضع قدره ثلاث جنيهات ونصف.. كان ذلك إنقاذا حقيقيا لوضعي الحرج..

.. إغتصب العمل محاضرتي الأخيرة في أيام عديدة في الكلية، اذ كان عليّ أن أبدء غسل صحون أحد المطاعم في الساعة الرابعة كل يوم، وأنتهي من ذلك في الثامنة.

.. تقلّصت الوجبات التي كنت غالبا ما أُعدّها في مطبخ مسز كوينز واقتصرت أحيانا على غليّ الشاي، وبضعة أقراص من الخبز المقدد الأسمر.. أبذخ أحيانا لأمسح سطح القرص المحمّص ببعض الزبدة أو المربى أو حتى كليهما.. أتذكّر (تَهجْينةْ أم علي) في الأزمان التي خلتها بعيدة جدا.

.. لمْ تبدأ مرحلة الصيام الحقيقي بعد.

.. إلتقيت بصوفي مرات عديدة في المطبخ أثناء إعداد وجباتي.

.. إقتصر الحديث في أغلب الأحيان على التحية، وكلمتين عن الجو البارد والثلج أو.. "ياله من يوم مشمس رائق!" ثم.يومك سعيد وأنا أغادر المطبخ.

.. سألتْ صوفي مرة عن دراستي وفرعها، وكيف تسير أمور الدراسة الجامعية التي لم تتمكن هي من الإلتحاق بها للأسف..

.. بدأ الحديث يطول لدقائق، او لفترات أطول من تحضير وجباتي المختصرة.

_ أراك اثناء قدومي الى المطبخ، وكثيراً ما أجدك تمسك كتابا في الليالي.. ومن باب غرفتك الذي تتركه مفتوحا حين تغادر، شاهدت صفوفاً من الكتب تحتل الرف فوق المدفأة.. جيمس لا يقرأ!.. هو لا يحب القراءة كما نحبها أنا وأنت.

.. تطوّر الحديث يوما، لتسألني:

_ هل يمكنك إعارتي كتاب (عشيق الليدي تشاترلي).. لقد رأيت عنوانه بين كتبك.

_ بالطبع فأنا من عشاق د.هـ. لورانس.

***

أترك الكلية في الساعة الثالثة والنصف كل يوم.. أصل إلى الغرفة الرطبة الخالية من أية نافذة في قبو المطعم قبل الموعد بخمس دقائق لأبدل فيها ملابسي بملابس العمل، أُعلّق فوقها الصدرية المطاطية الطويلة الثقيلة.. أحيي السيدتين الكهلتين السمينتين وشاباً ضعيفا (مَمصوصاً) أشقراً لحد البهق، تبدو عليه معالم الهَبل، يضحك لأبسط الأسباب أو دون سبب..

.. نشترك جميعا في الحوض الطويل، مقتسمين أكوام صفوف الصحون القادمة من المطعم فوقنا.. بعد أن نرمي البقايا العالقة بها في برميل كبير.. نبدأ بوضعها في أقسام الحوض أمامنا.. نسكب عليها سوائل الأصبان، وبفرشاة وإسفنجات خاصة أو بأصابعنا المطاطية نغسلها ثم نحملها لنضعها طبقات فوق بعضها على مائدة طويلة قرب مدخل غرفة الغسيل.. ينقلها عمال آخرون إلى مطابخ المطعم.

.. تدور أحاديث بين الغسالين، تكون حصة السيدتين الكهلتين فيها هي الأكبر..

.. هموم الغلاء ومشاكله،.. أجور الكهرباء والماء ووسائط النقل الباهضة،.. إصلاح مواسير مطبخ كاتي الذي كلفها أجرة أسبوع كامل.. زواج إبنة أخ دوروثي، وهدية العرس المُكلفة التي إشترتها لحفلة زفافها.. فضائح مختلفة.. إغتصابات وسرقات في هذا الحي أو ذاك.. نكات جنسية خليعة، غالبا ما يتندرون بها مع هنري الأشقر الضاحك الممصوص، الذي يحبه الجميع وأنا منهم..

كان من الصعب عليّ جدا في البداية أن افهم كلامهم ونكاتهم بلهجتهم العامّية التي تتحدث بها الطبقات الدنيا من الإنكليز..

.. بدأت في إعتيادها بعد حين.

.. لو تعب أحدهم أو شكى من توعك طاريء سارع الآخرون لاقتسام صحونه وتركه يستريح مع قدح شاي وقطعة بسكويت يجلبونها من الأعلى..

.. كل شي يجري وأنا منسجم تماما معهم ومع طبقتهم ووضعهم الإجتماعي وطريقة سير العمل الليلي وكان هذا التقبل للوضع يمتص كثيراً من تعبي الجسدي والنفسي في أغلب الإيام.

.. كانوا يحترموني ويعاملوني برقة أغلب الأحيان، فأنا الشخص المتعلم بينهم.. طالب الجامعة!!

***

أخرجَ هنري من كيسه الكتاني الخاص بوجبة عشاءه، في فترة إستراحة الشاي، دفتراً صغيرا بغلاف حريري مزيّن بنقوش وزهور ملوّنة تتدلّى من حافته خيوط محاكة تشبه عرف ديك هندي.. وأتي به صوب الجالسين..

_ إنه اوتوغرافي الثمين!.. إنه أعز ما لديّ!.. مَسَّدَ على غلافه بحنان وعرضه علينا بفخر وفرح طاغٍ..

_ هل لكِ ان تكتبي لي شيئا في الأوتغراف مسز دوروثي.. قالها منحنيا صوب السيدة الكهلة بوجه ضاحك ودود.

_ بالطبع هنري العزيز بالطبع..

أخذتْ من يده الدفتر ثم قلم الحبر.

وضعتْ الأوتوغراف على الطاولة وانحنت فوقه حتى كاد وجهها أن يلامس الصفحة التي تكتبها وخطّت بجهد كبير بعض الكلمات ثم أعادت الدفتر الملون اليه..

قرأ هنري ما كتبتْ.. وقهقه فرحا.. إنحنى عليها وقبلّ خدها.

كذلك كان الأمر مع زميلتها الأخرى.

هدأ هنري قليلا من إثارته.. صمتَ، ثم بصوت يشبه التوسل:

_ هل لكَ رجاءً أن تكتب لي شيئا حتى وإن بعض كلمات.. كم سأكون شاكرا.

_ بالطبع يا صديقي العزيز هنري، بالطبع!

كتبتُ بخط حاولت أن يكون واضحا وجميلا وكبيرا ملأ صفحتين.

To my sweet, simple, good hearted beautiful friend.. , ..

(إلى صديقي اللطيف، البسيط، طيب القلب هنري، الذي أعزه كثيرا متمنيا له كل النجاح في حياته القادمة.. ،.. ،.. مع عميق محبتي)

قرأ ذلك، إحتضنني وقبلني.. قفز وضحك وهو يدور على نفسه.. إنحنى بفخر صوب دوروثي ليطلعها على ماكتبتْ.

تملّتْ دوروثي في الصفحة المكتوبة.. أطرقت براسها فترة قليلة.. تجهّمتْ، ثم قالت بلهجة جادة رافعة رأسها.. هزّته بنفي قاطع:

_ إنه ليس بسيطاً!.. ليس بسيطاً أبدا!.. إنه ذكي نبيه!.. ليس بسيطاً كما تدّعيه أنت فيما كتبت .

مالتْ على زميلتها بجوارها وأطلعتها على صفحة الكتابة بما يشبه التأسّي..

هزّتْ جارتها رأسها بأسف وكررت:

_ إنه ليس بسيطاً!.. ليس بسيطاً أبدا!.. كلنا نحب هنري هنا وهو لا يستحق مثل هذا القول، ثم انظري يا دوروثي إنه يَسخر منه كذلك (اللطيف).. (الجميل) لابد إنه يسخر من عزيزنا هنري.. وما الذي يعيب هنري حتى يسخر من شكله.. شاب وسيم تتمناه كل فتاة..

_ نعم وسيم ولا عيب فيه، عقّبتْ على قولها دوروثي، ثم أردفت _ لو كانت لي إبنة في مثل سنه لزوجتها له.. لا عيب فيه أبدا، ولا داعي للسخرية من شكله!.

ضمّ هنري اوتوغرافه إلى صدره فاغراً فاه متحدّر الرأس، وهو يتابع بحزن وذهول تأسّيات الكهلتين وأسفهما.

.. أقعى على الأرض شبه منهار، وبدأ ببكاء يشبه الهمس المتكسّر أولا ثم علا نشيجه وأحمّر وجهه وتبلل بدموعه ومخاطه السائل..

إحتضنته دوروثي التي كانت بجواره بحنان، ومسحت وجهه بكفها وقبلته..

_ لا تحزن، إنه عمل شائن وسيعتذر عنه.. نعم يجب أن يعتذر منك

كل هذا المشهد والحوار الدائر كنت أرقبه بذهول لا يصدق وأنا أتكيء بظهري على حوض غسيل الصحون.

التفت اليّ هنري، وبحزن ومرارة عميقين خاطبني غاضبا:

_ لقد أتلفتَ اوتوغرافي العزيز وكل ما فيه من كتابات جميلة!.. لماذا تكرهني هذا االكره وأنا كنت اقدرك كطالب جامعي يفهم (الأتيكيت) وكنت أتصوّر أنك تودّني مثلما سمعته منك مرارا.. لقد أتلفت أعز ما عندي.. أتلفتْ اوتوغغغ !!.. ولم يستطع إكمال عبارته إذ هزّته نوبة بكاء شديدة أخرى.

_ لقد شرحوا كلماتي لك بشكل خاطيء ياهنري.. كلها مودّة ومحبة وإطراء لك من كل قلبي.. إقتربتُ منه وحاولت احتضانه.

دفعني عنه بشدة وغضب مواصلاً بكائه:

_ تتصور نفسك فهيما لأنك متعلم!.. طالب في الجامعة!.. طُزْ فيك وفي تعليمك وجامعتك!.. لو اردتْ أنا أن أُنهي دراستي الثانوية وأدخل الجامعة لدخلتها بأبسط من دخولي إلى مرحاض عمومي.. لم أرغب في ذلك.. أنا أعيش وأكسب بشرف وجهد ومتعة.. أنا احسن منك.. ودوروثي وكاميلا أكثر فهماً منك.. واستمر في حديثه الغاضب الباكي حتى بعد ان نهض الجميع ليعاودوا غسل صحونهم المكدسة.

***

أحضر في الأماسي التالية إلى العمل وأُحيي الجميع.. .

.لا أسمع ردا من أحد.

إزدادت حصتي من الصحون الواجب تقاسمها وغسيلها..

.. أسمع عبارات فيما بينهم عن ضِيقهم بهذا الدخيل الطاريء الغريب عليهم.

.. أتناول الشاي لوحدي في فترات استراحة الشاي.

لم يدم الأمر طويلا، فبعد أسبوع وبعضه، نزلت إلى غرفة الغسيل في القبو لأجد رجلا كهلاً مكاني.

.. إعتذر رئيس عمال المطعم بإبلاغي عن عودة عامل الغسيل الذي غاب في إجازة طويلة ليحلّ في مكانه السابق عوضا عني، وليستغني عن خدماتي لذلك.

***

.. مرتْ أيام من الإنهاك المدمر وأنا أدور بين اكوام الثلج والريح التي تخز الوجه بدبابيسها الثلجية، ماسحاً ومذيباً الصقيع العالق بشاربي وحاجبيّ، أطرق أبواب إدارات المطاعم والمعامل متسولاً أي عمل.

.. أدور أكثر النهار وأنا جائع مقرور يائس.

تناهى إلى سمعي يوما في مدارج قاعة المحاضرات، عن زميل دهسته سيارة عند خط العبور فرقد في المستشفى أشهرا وحصل على تعويض نقدي مُجزٍ.

.. وقفتُ مرات عديدة عند خط عبور المشاة، وأنا أحلم بالمستشفى والحساء الحار والوجبات المقدّمة.. ولتكن بضعة كسور لابد إنها ستلتئم بعد حين، ثم يأتي ذلك التعويض المجزي، ويعود الرخاء والنعيم مجددا.

***

_ لقد تأخرتَ في دفع إيجار غرفتك لأكثر من إسبوع، قالت السيدة كوينز بوجه متجهم.

_ لقد أخبرتكِ بالإستغناء عني في عملي السابق بالمطعم، وأني سأستلم عملا أكثر إيرادا بداية الأسبوع القادم وسأدفع كل ماعليّ بل وسأدفع لك أجرة كل اسبوعين مقدما بعد ذلك.

_ لن يفيد هذا الشرح بشيء فلقد أنذرتك بالخروج مرتين، وها أنا أجدك أمامي هذه الليلة ايضا.. أضف إلى ذلك، وهو الأمر الأهم.. لقد لاحظت عليك وعلى صوفي تقاربا غير مرغوب فيه.. أنت تعلم بعلاقتها بجيمس وأنهما أقرب مايكونا إلى المخطوبين، وأنا أعوّل على هذا الإرتباط وأرغب فيه.. هي قد تكون قد جاوزت السن الذي على الفتاة أن تتزوج فيه.. لا تحصيل دراسي كافٍ عندها ولا تلك الخبرة التي تتيح عملا مقبولا، وجيمس شاب جيد وذو مدخول جيد.. إنك قد تخرب كل ما أحاول بناءه.. باختصار لقد أمهلتك وأنذرتك بالخروج لإكثر من مرة.. لن أسمح ببقاءك هذه الليلة التي كان عليك المغادرة فيها قبل هذا الوقت

_ لكن مسز كوينز، أين أذهب في هذا الليل القارس البرودة.. الأزقة ملئ بالصقيع المتحجر ودرجات الحرارة أقل من خمسة عشر تحت الصفر.. دعيني أغادر صباح الغد..

_ أنا لستُ مسؤولة عن سوء تخطيطك ولا عن تخطيك الموعد الذي أنذرتك به أكثر من مرة.. تغادر الليلة، يعني تغادر ودون إبطاء، وقبل رجوع جيمس، حينها سأتخلى لك عن أجرة الأيام التي لم تدفعها..

***

لم أكن قد تناولت شيئا منذ الصباح، الذي إقتصر فيه إفطاري على شريحتي خبز وشاي.

كانت الحقيبة أثقل من السابق، أو هذا ما أحس به الشخص اليائس التائه وهو يداورها من يد اليسار لليمين، أو يضعها أرضا للإستراحة ونفخ الكفين لبث بعض الدفء، وهو يترنّح بحمله الثقيل في الإزقة الكريهة الملتوية المتزلقة التي لا تنيرها إلا بعض نوافذ، يتلصص منها شعاع نور كابٍ.

لا أعرف اين أتجه ولا أي باب لديّ أستطيع طرقه..

.. في إحدى استراحات الحقيبة المركونة إلى جدار في الزقاق..

" أذا هيا الى مكانك المالوف!.. إتجهْ الى المحطة أيها الشريد المقرور.. هنالك مصطبة تتربع فوقها حتى الصباح وتلمّ أطراف معطفك الطويل فوق قدميك.. برد هناك أيضاً، لكنه برد محاط بجدران، وبه بعض من ضوء.. وفي الصباح سيكون نومك الهاديء الدافيء فوق مصطبة من مدارج قاعة المحاضرات."

.. إعياء شديد، وأنا أقطع الزقاق الذي لا نهاية له.. فقدت إحساسي بأرنبة أنفي وحاجبيّ.. بي رغبة عارمة للإستلقاء أرضاً والإغفاء.

.. لا أعرف كيف أبدلت إتجاهي، أو كيف كنت أقف عند عتبة باب العائلة البولونية، بغرفتهم المحكّمة نوافذها بقطع الكارتون البالي.. هل دققت الجرس أم لا..

كانت ربة الدار البولونية، تنظر إليّ بمفاجأة واستغراب من فتحة الضياء الذي أبهر عينيّ مجمّدتيّ الأهداب.

.. سحبتني وأنا شبه نائم إلى ضوء باهر في الممر ثم إلى المطبخ الساخن

.. أجلستني كدمية، وقبل أن تعدّل وضع جلوسي أسرعت.. ثم عادت.

.. دعكتْ أنفي وجاجبيّ ووجنتيّ بشدة..

.. بدأت أحس بما في هذه الأماكن من دعك..

.. بعض من الدفء يسري في الأجزاء المدعوكة بشدة.

.. لسع وألم فيها.

أعطتني ملعقة كبيرة..

_ كُلْ على الفور هذا الحساء الحار الذي أمامك!.

***

معي في الغرفة راندولف.

.. شاب خلاسي مجعّد الشعر نحيف البنية في العشرينات من العمر، ودود باسم الوجه، خصوصا حين يجلس على حافة السرير بخشوع صامتاً وهو يقشّر البصل وكأنه في طقس سحري كاريبي مقدس.. .. يقطّعه.. يسقطه في المقلاة الكبيرة تحت قدميه (لا مكان في الغرفة يتسع لطاولة او مقاعد).. يُخرج عناقيد الثوم الميبّس من الأكياس المكدّسة في الخزانة.. ويُجري عليها نفس طقوس البصل.. ثم يأتي دور نماذج غريبة بأشكالها وألوانها من الخضار أو الفاكهة، أو لعلّها تركيبة زراعية من كليهما.

.. يقشّرها ويقطّعها شرائح طويلة..

ثم بعضاً من قطع البطاطا.

.. يصب عليها زيت الصويا وحفنة من التوابل والملح..

.. يخلطها بأناة في المقلاة التي يرفعها إلى جانبه..

.. ينهض بعد أن يطلق زفرة ارتياح ورضى..

_ الآن حان موعد نزولي لأضعها على الموقد في مطبخ (سفيتا)، وبهذه الطريقة لن أشغله لفترة طويلة، فهنالك آخرون قد يستخدمون المطبخ مثلي.. يخاطبني راندولف ضاحكاً وهو يحمل مقلاته لينزل بها إلى المطبخ.

في الغرفة الأرضية المؤجرة، يسكن شابان بولونيان، مع طاولتيها الكبيرتين ومعدات أخرى من مساطر وأقلام وزوايا.. يقوم (فلادي) و(سيرجي) برسم خرائط هندسية لبيوت مزمع إنشاؤها.. . يعملان (بالقطعة) من غرفتهما بتكليف من المهندسين المعماريين في المدينة

.. يعود رب البيت (سلافتش) متجهّما آواخر كل مساء ببدلة قاطع تذاكر الباصات.

.. يعلّق سترة العمل المزيّنة بالأزرار النحاسية العديدة، ومعها ماكنة التذاكر الإسطوانية وحصالة قطع نقودها المعدنية، على مشجب الملابس في الممر.

.. يتوجه سلافتش فور ذلك إلى المطبخ.. يجلس على كرسيه الخاص وراء المائدة المستديرة قرب المدفأة ويضع رأسه بين كفيه صامتا في انتظار وعاء الحساء الساخن الكبير الذي تأتي به سفيتا بصمت أيضا من الموقد.. . بعد فترة من الصمت غير قصيرة تجلس فيها سفيتا أمامه في الطرف المقابل من المائدة وهي تنظر إليه بعطف وحنان.

.. يبدء حديث تتصاعد حرارته.

.. أسمع طَرفاً منه في احيان كثيرة من غرفتي حين أكون مقرفصا تحت أغطية فراش الصناديق التي أنام وأجلس واقرأ فوقها.

***

لم تسألني سفيتا عن دفع الايجار، بعد أن أدخلتني إلى دارها في تلك الليلة وقدّمت لي وعاء الحساء الساخن الكبير، بل قادتني بعد ذلك إلى غرفة راندولف ورتّبت الفراش والأغطية فوق الصندوقين وطلبت مني (أمرتني) الدخول بين الأغطية.. . أطفأتْ الضوء ونزلتْ.

صباح اليوم التالي، وأنا أقف عند مدخل المطبخ، شاكرا ماقدمته لي من عون إنقاذ ليلة امس، وقبل أن أبدء بشرح ظروفي الماليه ودفع إيجار الغرفة التي سأسكنها، أشارت إليّ بصمت وهدوء إلى كرسي وراء المائدة.

.. جلبتْ لي كوباً من الشاي، وصحناً به قطع من السكر ودورق حليب صغير، وقطعة من الزبدة مع بضع شرائح من خبز مقدد.

بعد أن تناولت إفطارا لم أعرف مثله لأسابيع، شكرتها وطلبت منها إمهالي في الدفع إلى اسبوع من بدء عملي في مصنع Good Years لإطارات السيارات، وأن ما بحوزتي الآن سيكفيني، وفي أحسن الأحوال لأجرة الباصات ولسدّ الرمق في الظهيرة في الكلية.

_ سيكون إفطارك هنا عند الصباح، وعند المساء سأقدم لك الحساء الذي أُعدّه.. وحتى تستلم راتبك الإسبوعي من عملك القادم سنتفاهم حول أفضل ما يناسبك للبقاء هنا.

***

يبدء عملي في النوبات الليلية للمصنع في الثامنة وينتهي في السادسة من صبيحة اليوم التالي.

قاعة هائلة السعة، تزمجر فيها مختلف الآلات، والأحزمة المتحركة ومطارق عشرات العاملين.

كانت واجباتي أن أقف مثل العديد وراء قرص معدني كبير دوار.. أضع فوقه الجزء الصلب من العجلة المطاطية، وألصق فوقه الجزء الليّن بداخله، مستخدماً كتلة حديدية ساخنة أضع عليها ثقل بدني وجهد يديّ كي تصبح القطعتان قطعة دائرية واحدة.. لا انبعاج ولا زحف في حواشي الواحدة الملصقة بالأخرى.

كل العاملين وراء هذه الأجهزة من حولي رجال ضخام أشداء ذوو عضل مفتول..

.. بدوت بينهم كالزرزور الضائع المشدوه.

.. قدّم لي جاري على الآلة المجاورة، وهو كهل ضخم، بعض المساعدة والإرشاد في الطريقة الصحيحة للصق أول عجلة اقوم بها.. إستغرق ذلك مني وقتا غير قليل.

.. الأجرة الممنوحة أسبوعيا على عدد القطع المعدة (بشكل صحيح).

لم تمض إلا ساعتان حتى بدأتُ أحس بالتعب، وأخذ زئير الآلات يشدّ من أعصابي شيئا بعد شيء.. أحسست بعد فترة من ذلك، أني سأستخدم مطرقتي الثقيلة لأضرب بها، وبالعنف الذي استعمله فوق الجهاز الدوّار المهتز، لأضرب بها شيئا آخر، أحد المارين من العاملين بجواري، أو لأرميها بعيدا في القاعة الضاجة دون هدف فتقع فوق ماكنة أو فوق رأس مسكين.

.. لم يحصل أي من ذلك، إذ رنّ جرس بصوت إرتجّت له القاعة وارتجّ معه جسدي كله، ثم هدأ الضجيج ولم يبق إلا لغط العاملين المغادرين لآلاتهم متجهين صوب بوابة مشرعة آخر الصالة.

_ انها إستراحة الشاي.. نصف ساعة بعد كل اربع ساعات من العمل.

هدأ اهتزازي وتوتري قليلا وأنا أتبع الجميع إلى قاعة أخرى بمناضد طويلة ومصاطب خلفها..

.. إصطف الجميع ليسكبوا من صهريجين كبيرين، الشاي أو القهوة في الأقداح الكارتونية المعدّة لذلك.

جلس الجميع خلف مصاطبهم بين لغط متعال وضحك ونكات تتخللها شتائم بذيئة.. أخرج كل منهم من محفظة يحملها طعاما جاؤا به من بيوتهم.. معظمها، كانت سندويجات.

.. لم أحسب حسابا لذلك، وبدأت في رشف قدحي الساخن مستمتعا..

_ هاك! هذه سندويجة على الحساب، ضحك وهو يقدمها لي، وأردف

_ جديد أنت على مثل هذه الأمور ولم تحسب لذلك حساباً.

تناولته منه شاكرا، أمدّني ذلك لا ببعض الشبع فقط ولكن براحة نفسية كبيرة ساعدتني على التماسك في مقاومة النعاس الشديد الذي بدأ يتسرب إلى كياني كله.

.. أُراقب الساعة لعل دقائق الراحة تطول..

.. بقيّ من الوقت عشر دقائق!.. أصبحت خمسة فقط!

.. بقيت على الاستراحة دقيقتان.

هزّ الجرس الذي رنّ بشدة في موعده، وكانت لحظة مفاجئة زلزلت كياني.

.. تبعثُ الحشد الذي قام متلكّئا عائداً صوب هدير الآلات التي انطلقت تزمجر من جديد.

***

حين خرجت أترنح نصف نائم من بوابة المصنع الضخمة، كان طنين زمجرة الآلات لا زال يصخب صداه في اذنيّ.

.. ذبذبة الدولاب الذي كنت ألصق وأطرق فوقه لثمان ساعات لم ينته أثرها في جسمي المرتعش.

.. لا أدري كيف وصلت إلى مكاني في آخر مدرج لقاعة المحاضرات، غير أني صحوت على بدء المحاضرة الثالثة، وكانت عن الهندسة الفراغية ومعادلاتها.. لم أفقه منها شيئا وعدت إلى النوم.

الليلة أجرة عملها مضاعفة ايضا، فعليّ الإستعداد، لعلّي أُحسّن عملي فيه وأُزيد من عدد قطع الإطارت التي أُجهّزها..

.. تسللتُ من باب المدرج الخلفي، ودون أن انظر إلى أحد في صالة الكلية خشية تانيب أحدهم.. غادرت.

***

لم يكن هنالك أحد في الدار غير سفيتا، التي سمعت ترنيمتها الخافتة في المطبخ..

.. تلصصتُ في الصعود خشية أيّ حوار يقطع علي رغبتي في نوم هاديء تحت أغطية دافئة ووسادة مريحة، بدلا من منصة الكتب والأوراق التي أضع رأسي عليها، والتي ترك خشبها حزوزا في جبيني بعد ساعات من النوم في المدرج.

.. يا للنعيم!!.. يا للمتعة، يا لمكاني الرائع فوق فراش الصندوقين الحديدين!!.. حتى هبّات التيار البارد المترشح عبر كارتون النافذة غير المحكم قربي حسبته شيئا منعشا، صحيا، وأنا أتدثر بغطائي قربه.

.. يا لمتعة النعاس والخدر اللذيذين..

صحوتُ والغرفة تسبح في ظلام دامس.

.. قفزت من فراشي ونزلت بسرعة كبيرة شبه مفزوع لأدخل المطبخ.

_ إنها السادسة والنصف.. لا تتعجل لديك الوقت الكافي لتناول حساءك قبل الذهاب إلى المصنع.

_ شكرا سفيتا انها ليلة نهاية الأسبوع وأجرتها مضاعفة.

_ أعرف ذلك، فسلافتش غالبا ما يعمل في نوبات الباص الليلية يوم الأحد رغم وضعه الصحي المتدني، للأجر المضاعف الذي ذكرته.

_ تناولْ حساءك! ولا تنس كما الأمس سندويج الجبنة الذي أعددته لك.***

مع مرور بضع ليال، بدأت بالتعوّد تدريجيا على هدير الآلات وزمجرتها ورعشة الدولاب الدوار والمطرقة الثقيلة والتغلب على الشعور بالنعاس..

.. زاد عدد القطع التي أُعدها وبشكل صحيح، وإن لم تزد على ثلثي ما يعده الهراقلة الآخرون من حولي..

صبيحة السبت إستلمت أجري أخيرا..

.. لم أر مثل هذا المبلغ يدفع لي من زمن طويل..

.. ستة باونات وثمانية شلنات وستة بنسات (الباون إثنا عشر شلنا).

_ شكراً سفيتا العزيزة!

.. قبلتُ سفيتا ودفعت لها أجرة الأيام الفائته وأجرة الأسبوع المقبل.

بذلت جهدا أكبر فتبدلت مواعيد نومي في مدارج قاعة المحاضرات..

.. أُنهي نوبة عملي.. أُسرع الى سريري من الصندوقين.. أنام ساعتين

.. أطلب من سفيتا أن توقظني في الثامنة والنصف.. أتناول إفطارا سريعا مبتسرا في مطبخها.. ألحق ببدء المحاضرة الثانية.

.. اغفو في المدرج فوق مصطبتي وراسي على لوح الكتب والأوراق أمامي.. أصحو بعد انتهاء المحاضرة الأخيرة.

.. أُسرع لإكمال نومي ساعتين اخريين في غرفتي.

.. خيبة أمل!.. وللظروف أحكام.

.. ذلك خير من الجوع والنوم في المحطات وقرسة البرد الخطرة التي قد تفقدك أرنبة انفك.

.. في الحياة أشياء اخرى ذات قيمة، غير الكلية والمحاضرات.

.. هنالك مورين!! ولا زلنا نتبادل رسائل تفيض عشقا ولهفة لقاء مرتقب

***

يقول المثل، أولعها تجاريب الحياة التي تقول (المصائب لا تأتي فرادى).
.. قد يحصل أن ينقلب المثل أحيانا، أن الخير لا يأتي فرادى.

***

تراجع الشتاء المنهزم.. تمّ إصلاح نوافذ غرفتي.. وتبدّلت نوبات عملي، لتصبح مسائية.. تحسّن وضعي المالي، فأنا أتناول الآن وجبات ثلاث وأدفع إيجار غرفتي في مواعيدها.

.. إتفقنا أنا ومورين على فسحة لقاء نستهل به تباشير الربيع المزمع على القدوم.

.. أتمارض أنا عن المصنع لمساءي السبت والأحد وأركب القطار كي أصل إلى ساندرلاند عند الصباح..

.. تتمارض مورين عن مكتبتها صباح السبت..

***

يوم مشرق باهٍ

.. نلتقي في مقهانا فوق الرابية..

نسير رهواً حالماً على رملة الله الندية أسفل الهضبة الصخرية المنزلقة صوب شاطيء البحر.

.. نستلقي عند المساء فوق صخرتنا الملساء..

.. يلفّ أحدنا الآخر بمعطفه فيسري دفء لقاء جسدينا ليقهر الشتاء العجوز المنهك المتقهقر من حولنا..

.. يعيننا البحر بأنغام وشوشته وبهبات دافئة رطبة يرسلها الينا..

.. تندّس براسها وتغيب فوق صدري فأغرق في عطر بحر شعرها الأحمر..

.. نصحو وقد أوشك الفجر أن ينشر خيوطه فوق العباب عاتم الزرقة..

_ إصحَ أيها الكسول!! لقد أعددت لك برنامجا مثيرا.. عجّل!.. أنهضْ! وهيّا بنا إلى محطة القطار.

_ لنكمل نومنا هناك؟!

_ كلا ولكن لنأخذ القطار القادم فجرا من أدنبره إلى مدينة (دارام) القريبة.

***

تناولنا إفطارنا في عربة مطعم القطار.

.. كان الضباب يتهادى فوق حقول الشمال وأكماتها وغاباتها المتسارعة إلى الخلف ويلفها بأوشحة شافة زرقاء بنفسجية سرعان ما بدأت تتمزق وتتناثر، ليخترقها نور الصباح المتمّهل الذي أنار القمم، فتلامعت خلاله ذروات الأشجار الصنوبرية الندية.

هضاب ووديان وهياكل نحت جيكومتية من الأشجار، موديلات عرّاها فنان الشتاء، أخذت تمرق منسحبة خجلى عبر النافذة العريضة..

.. هاهي المدينة تبرز بأبراجها وقباب نواقيسها وقرميد أبنيتها العريقة تتلامع بأحزمة الشمس وهي تخترق نوافذ الضباب فوق الهضبة العالية.. تبرز كقلاع سحرية قوطية إنشقّ عنها الجبل، يسكنها رهبان وشياطين وجن، وحوريات، وسعالى، وساحرات شمطاوات بشعور منكوشة ومكانس قش طويلة، وملوك يتعالون بتيجانهم وصولجاناتهم..

.. قفزت منبهراً وكأني أريد أن أخترق النافذة لصقنا لأطير إلى الرابية السحرية المتقاربة..

.. قبّلتُ مورين عبر مائدة الطعام فاندلق دورق الحليب ورنّتْ الملاعق والأقداح المهتزة.

***

كانت المدينة ساكنة، غافية فوق نهرها العريض الذي أحاطته بأبنيتها الصخرية المتقادمة وبأجمات كثيفة وغابات صنوبرية إبرية شامخة.

إحتضنتُ مورين فوق جسرالمدينة الحجري الذي شهد أمجادها العريقة .. إحتضنتها طويلا.

ارتقينا الهضبة، ثم انحدرتْ بي راكضة إلى وادٍ عند حافة المدينة.

***

بدأ الشتاء انسحابه بعد هجومه العنيف الكاسح على جزيرة الضباب هذه السنة.. ومع انسحابه سارعت كتائب الطيور المهاجرة زحفها على كثير من أكمات و غابات الشمال والوسط..

كان لغط الآلاف منها وهي تتبادل مواقعها فوق هامات الأشجار التي تتزاحم في الوادي، الذي لا زالت أوشحة ضباب متلاش تسرح متماوجة بين أطرافه، يطغى على أيّ حديث متبادل بنبرة تخاطب إعتيادية..

.. عليك أن تصرخ ليسمعك من بصحبتك.

.. فضلّنا الإصغاء على التخاطب.

***

تعرّفت على الطالب العراقي الوحيد في المدينة والذي يدرس في فرع هندسي آخر من الكلية، وغالبا ما يكون دوامه في بناية أخرى.

أنهتْ الملحقية الثقافية علاقته بالبعثات لنشاطه السياسي وقطع عنه راتبه قبل قرابة العام.. وكانت أزمة معيشية خانقة إعرفها حق المعرفة.. هبّتْ لنجدته صديقته Lilli)) لِيلي، بما يتبقى من راتبها الضئيل الذي تعطي معظمه لأهلها المضنوكين..

.. لليلي، هبة ربانية فريدة في اللغات، ففي عمرها الذي لا يتعدى التاسعة عشر، كانت تجيد خمس لغات، نطقا وكتابة واختزالا shorthand، وتَبرع بها كلها على الآلة الطابعة.

.. تعمل في مكتب سياحي.

.. لم تفِ مساعدات ليلي بمتطلبات رسول المعيشية والجامعية، فاهتدى أهلها إلى حل بارع وجميل للجميع..

.. في القبو الذي تسكنه عائلة ليلي وروبرت والدها ذي الإيراد البسيط ووالدتها المقعدة بسبب الروماتيزم، غرفتان.

واحدة للوالدين، وأخرى لليلي وأختها المراهقة الأصغر هيلين.. هنالك مخزن عِدد الترميمات وأدوات التنظيف، وساحة صغيرة مرصوفة بالطابوق تشبه ساحات بيوت أزقة قمبر علي.

.. أُخليت غرفة العدد والترميمات لتسكنها هيلين، وأصبح لليلي مجال اوسع.

_ ها قد حللنا أزمة صديقك رسول يا ليلي!.. قالها الاب ضاحكا.

***

.. تزوج رسول وانتقل ليعيش كواحد من أفراد العائلة المتكاتفة، الراضية السعيدة.

حين التقيته لاول مرة أُعجبتُ كثيرا بقامته الفارهة ووسامته وأناقته، وبالوجه الباسم والحديث الذي تستشف من خلاله وخلال الدقائق الأولى التفائل والأمل، والثقة بما هو قادم، مجهولاً كان أو معروفاً مخططاً له.

.. ليلي تفوقه في كل ذلك.. جميلة ناعمة رشيقة، بوجه باسم مرحب بالحياة والاخرين، أبيض متورّد تزينه قطرات من نمش عسلي وشعر أقرب إلى الأشقر منه إلى الكستنائي.. يمكن أن تبكي ليلي فرحا اوأسى، ولكن لا عقبة في هذه الدنيا، ولاشيء يمكن ان يقطّب حاجبيها..

.. ربما ورثت ذلك من الأب المكافح الراضي السعيد بعائلته، المستبشر الضاحك.

حين رأت الكلية محنة طالبها المجد اللطيف المعيشية، وفّرت له عملاً محدود الراتب ولساعات بين أوقات محاضراته..

.. رسول الذي تعرفتُ عليه يعرف تماما نعمة الرعاية التي أُحيط بها.. لم أره يوما غير واثق ومتفائل.. لا في أيام المدينة الكئيبة، ولا في السنين التي تلتها، وفي ظروف ومواقع متغيرة من هذا العالم الكبير الصغير.

(حُييتَ يا صديقي أينما كنت).

دعاني بيت ليلي ومن فيه إلى وجبات عشاء في ليال عديدة، وغداء ظهيرة الآحاد حين يجتمع شمل العائلة المرحة في حوش الدار الصغير.

طلبتُ من رسول أن اردّ الدعوة بمثلها..

.. أُحضّر انا كل مواد الطبخ كاملة واتي بها الى دارهم يوم الاحد وأستعين بادوات المطبخ هناك، واعدّ لهم وجبة عراقية.

.. وهل هناك غير الدولمة-الشيخ محشي.. وعلى رسول أن يكون مساعد الطباخ.

دِرتُ على مخازن الهنود والكاريبين والفيلبيين وساعدني راندولف في الإهتداء اليهم.

.. حَضرتْ الكوسا والباذنجان ورؤوس الفلفل الكبيرة الخضراء وأصابعها الحارة الحمراء والبصل والبطاطا وغيرها من اللوازم.. لم أنس باقة الورد وقنينتي النبيذ.

.. لا ورق عنب أو سِلقْ في أي مخزن.

.. إستعرت من راندولف بعض توابله التي أختنق بروائحها في الغرفة كل يوم.

شمرّنا أنا ورسول عن ساعدينا، ومنعنا أيّ أحد من العائلة من تخطّي عتبة المطبخ لساعات ثلاث أو اكثر.. ثم حانت اللحظة الكبرى.

حملنا القدر الكبير والصينية، مرددين لحن العرس الشهير بأفواهنا وتقدّم رسول، ناقراً على الصينية بدلا من الدفوف.

.. قلبتُ القدر فوق الصينية ورفعته عن المنظر المهيب لصفوف المحشيات المرصوصة.

.. هلل الجميع إعجابا وفرحا.

رسول يسكب النبيذ في الاقداح، وأنا أُرتّب نماذج من كل نوع في صحون الجميع.

.. والد ليلي والوالدة وأختها هيلين ينتظرون بلهفة البدء، بعد أن تأخر عليهم موعد الغداء لأكثر من ساعتين.

.. تذوّق الثلاثة بعض ما في الصحون.. إختفت من وجوههم معالم اللهفة التي كانت.. لم يظهروا أي امتعاض من نماذج القدر العديدة..

_ هل هنالك بطاطا في الطبخة؟.. سأل روبرت.

_ نعم بطاطا!!.. بطاطا!!.. أيّدت القول هيلين ووالدتها.

.. صمتتْ ليلي وهي تبتسم، مواصلة أكل ما أعددناه لها في الصحن.

_ بالطبع!.. بالطبع! اجبت انا.

.. لحسن الحظ كنّا قد حَشَونا في الطبخة كمية غير قليلة منها.. كانت تحت صفوف المواد الأخرى بعد أن قُلب القدر..

.. أزحت كل تلك الصفوف العديدة ووضعت البطاطا المحشوة في صحون الثلاث..

_ قلتُ بالعربية (اذا حضر الماء، بطل التيمم.. وعند الانكليز إذا حَضرت البطاطا، بطل البصل والملفوف والفلفل والكوسة)..

.. ترجم رسول ذلك.. ضحك الجميع وشربنا نخب البطاطا.

***

أصبح نزولي لتناول حساء سفيتا ليلاً شبه يومي، كنت أفضل أن أتناوله قبل مجيء سلافيتش منهكا كل ليلة، حتى في أيام الآحاد، فقد كانت أجرة عمله فيه مضاعفة.. لكن سلافيتش لا تفوته بعض تلك الآحاد حين يجتمع البولنديون حول نصب في حديقة المدينة، لينشدوا أغانيهم الوطنية بحماس وبوجوه يشوبها الحزن، وقد تنهلّ دموع من عيون البعض وتختنق أصوات البعض الآخر، ثم يتحدث أحدهم في الجمع، وكثيرا ما يكون سلافيتش هو المتحدث عن آخر أخبار الوطن.

أنتظرُ زمنا، ليضع فيه رأسه بين كفيه ويصمت، وتصمت سفيتا معه، ثم ليتناول عشاءه من الحساء والكاتليت أو من الغلاش.. وحين يبدأ بالسعال الشديد المتقطع وكثيرا ما يطول بعد ان ينهي حواراته مع زوجته، والتي يصلني بعضا منها باللغة البولندية، وحين يصمت المطبخ، وأعرف انه حان وقت إسترخاء سلافيتش على كرسيه الهزاز، أنزل حينها لتناول الشاي معه ولتبادل الحديث.

***

يدور نقاش ساخن بيني وبين سلافيتش أحيانا

.. سلافيتش يزمجر:

- لقد تعاونوا مع هتلر في احتلالنا.. لقد ذبحوا خيرة ضباطنا.

- دعايات رأسمالية لتشويه صورة الاتحاد السوفياتي العظيم.

- ألم تسمعوا في بلدكم إيران، بـ(مجزرة كاتين).. لقد ذبحوا في غابة كاتين ذبح النعاج، أكثر من خمسة وعشرين ألفا من خيرة شبابنا، كانوا قد جاءوا لنصرتهم..

- اولا أنا من العراق، ثانيا وأكرر إنها أكاذيب الإمبريالية بحق الإتحاد السوفياتي العظيم صديق الشعوب.

ينهض سلافيتش وقد احتقن وجهه وأخذ يسعل وضرب المائدة بكفه بقوة كادت أن تقع من فوقها أكواب الشاي، وبصوت مختنق شبيه بالحشرجة يصرخ:

- لقد وقفوا يتفرجون على مجنزرات هتلر وقنابله الحارقة وهي تبيد كتائب المقاومة البولندية.. التي نهضت إلى العلن حاملة سلاح الثورة للتحرر ولمساعدة جيوش السوفييت الضخمة المتقدمة، لقد بنى الالمان جدراناً على العديد من الأزقة التي تحصّن فيها المقاومون ثم أحرقوا ودمّروا بمدافعهم الأحياء المؤدّية لها لا بمقاوميها بل وبكل قاطنيها، نساء وأطفالا وشيوخا.. لقد وقفوا أحبابك السوفيات بجيوشهم الجرارة يتفرجون على المذابح والحرائق والخراب وهم على مبعدة كيلومترات معدودة، وبعد أن صُفّيت المقاومة دخلوا..

- إنها تخرصات أبواق الراسمالية الاستعمارية.. سيبقى الإتحاد السوفيتي العظيم..

_ أُنظر اليّ!! إنسان مهدّم هرم، وأنا لم اتجاوز الخمسين، لقد شاهدت ذلك بعيني، فقدتُ نصف أهلي واقاربي وخيرة أصدقائي في المجزرة، نحن من القلّة التي نجت وتمكنت من الهروب.. لم أُلق سلاحي بل حاربت ومع العديد من أمثالي من الناجين، حاربت مع الإنكليز وحلفائهم في الجبهات.. لقد قُتل منا

عشرات الالاف في هذه الجبهات لإسقاط الفاشية والرايخ الثالث.. وماذا كان جزاءنا هنا بعد الحرب، لقد أُوكلتْ لنا اصعب الأشغال وأكثرها إرهاقا ودمارا.. ثمان سنوات في أعماق قبور المناجم الرطبة المظلمة، أكل الفحم فيها رئتيّ، لقد أبدلوا عملي لا رأفة بي، بل لأني اصبحت لا أصلح لماكنة الإنتاج.. ماكنة لا تعرف الرحمة.. ماكنة تطالب بوقودها فقط.. نحن وقودها.. وأنت الآن ايها الصبي الغرّ اللعين تلقي علي درساً في السياسة.

نهض سلافتش من كرسيه وهو يزمجر بكلماته الاخيرة.

- ألا تترك يا حبيبي سلافتش هذا الشاب المسكين وحاله.. دعه يُكمل قدح شايه ليذهب إلى عمله، تدخّلت ربة البيت مقاطعة، وأمسكت بذراع سلافتش مهدئة وأجلسته على مقعده برقة..

- هل تريدان قدحاً آخر من الشاي؟

***

مع صراعي من أجل أن اجد ما أعيش به، يأستُ اخيراً من أن أحقق أيّ تقدم في كليتي.. أزمعتُ أن أحضر عددا محدودا من المحاضرت وبعض المختبرات التطبيقية فيها، ربما لكي أحافظ على إحساسي بأني لم أزل طالبا، وأن ارى اناسا أترف وأنعم في شكلهم وأحاديثهم من اولئك الذين أعمل معهم في المطابخ والمصانع..

.. إلتحقت بدورة تعليمية للفنانين.. بأجور زهيدة لا تتعدى ثمانية شلنات.

اذهب كل سبت إلى صالة واسعة، مقسّمة إلى مجاميع رسم ونحت وخزف وليثوغراف.

.. كانت فنانتنا المشرفة، إمرأة لطيفة الشكل والملبس والقوام في منتصف الثلاثينات.. نشطة مرحة.

كانت عدّتي معي منذ هبة الشيخ الكريم، علبة ألوان مائية إحترافية مع عدد من الفِرش الجيدة.

تخرج بنا فنانتنا المغرية أيام الاحاد، إلى مواقع في ضواحي المدينة تجد فيها لقطات فنية قابلة أن تتحول إلى لوحات..

.. أنظرُ إلى رسوم رفقتي في الدورة، وأغلبهم من خريجي مدارس ومعاهد رسم، فأجدها أكثر إتقانا وصنعة..

.. أُصرّح بذلك متأسّيا لمرشدتنا، وهي تدور حولنا مراقبة رسومنا..

.. تهمس في أذني:

_ لقد خربتهم قيود تعليمهم.. أجد رسومك أكثر تلقائية وتأثيرا.

***

كان الوقت متأخرا حين دعتني إلى بار قريب بعد انتهاء الدرس الليلي.

.. نجلس لصق بعضنا وراء منصة البار.. تطلب لي ولها كأسيّ بيرة سوداء.

.. يسخن الجو والحديث وتسخن ذراعها العارية لصق ذراعي.

.. تطلب كأسين آخرين لكلينا.

.. أتحفّظ في شربي للكأس الثاني.. " هل أقوم بالحركة الرجولية اللازمة التي تنتظرها، فأعرض عليها مرافقتها حتى البيت.. لطيفة ناضجة مغرية!!.. لكن إصحَ يا هذا!!، فوراء ذلك دعوات عشاء رومانسية، لن ترضَ بمداعبات زوايا الأزقة، وعلى صخور الطبيعة الحرة الملساء.. ثم تلك الهدايا التي يفرضها الذوق والتودد، وأنت دوما على حافة الإفلاس والجوع والتشرد.. إصحَ!!.. ثم هنالك مورين حتى وإن لم تسألك يوما.. أنسيتَ وجهها المبلل بالدموع وقطرات النمش العسلي الذي يزداد انهماره في الوجه المحتقن المحمّر كلّما حان ابتعادك.. "

_ هل ارافقك الى دارك؟.. سألتها ونحن نستعد لمغادرة الحانة.

.. أخذت ذراعها بذراعي.. تهادينا في الأزقة المقفرة باحتضان رفقة خفيف..

.. عند باب الدار قبلتها بنعومة.

_ تصبحين على خير يا إيفلين!.. سنلتقي ليل السبت القادم.

.. غادرتها خزيانا.. ألعن نفسي..

.. هل لعنتها لتفويت اللقاء الجسدي الناضج المتلهف،.. ام لعنتها للموقف المحرج الذي وقعت فيه.. ؟!

.. لا أعلم، ولن أعلم يوما.

***

كان عليّ أن انهي علاقتي بهذه المدينة والبدء من جديد.

.. شرحتُ ظروفي الصعبة المختنقة التي وصلت إلى طريق مسدود للبروفيسور جيروم سميث، وأطلعته أني سانقطع عن الكلية تماما، بعد انقطاعاتي الكثيرة أثناء وجودي فيها، وساسعى أن أُرتّب وضعي المالي اولا قبل البحث عن الفرع الذي قدمت أصلا من أجله، وهو الهندسة المعمارية، ولا مكان لي أنسب من لندن في ذلك.

.. شكرته كثيرا على محاولة مساعدتي التي فرّطتُ بها مع مستر اوكيسي.

ودّعت رسول وليلي وعائلتهم.

حزمت حقيبتي التي ازداد ثقلها، وودعت راندولف.

في صبيحة اليوم الباكر للسفر إحتضنت سفيتا بحرارة مقبّلا خدّيها ومكررا ذلك.. لم يكن إحتضاني لزوجها سلافتش أقل حرارة..

_ إنتبه لنفسك أيها الشاب وأنت في بدء المسيرة.. لاتدعْ الآخرين، لا هنا ولا في بلدك ولا في أيّ مكان آخر، ان يغسلوا دماغك الفتيّ بتخرصات مصالحهم الإحترافية.. ليكن لك حكمك ورأيك حتى ولو لم يُرض ذلك الآخرين.. وداعا ياصديقي!

لم أنسَ أن أُرسل باقة ورد ورسالة شكر ووداع إلى مستر اوكيسي وزوجته وابنهم في المصح.

***

وضعتُ الحقيبة على رصيف القطار القادم والمتوجّه إلى محطة (كنكْ كروسْ) في لندن..

.. الشمس قد أشرقت قبل قليل والجو ربيعي بديع، وأنا رغم صخب الأحداث السابقة والخطط القادمة التي تدور في رأسي، بمزاج ونشاط رائعين.. لندن وبداية جديدة.

.. قدِم القطار.. ما ان توقف، حتى قفزت فرحا مسرعا لأحتل مقعدي قرب النافذة قبل الراكبين الآخرين..

.. صعد أحدهم ليجلس إلى جانبي، وما ان رفع حقيبته ليضعها في الرف فوقنا، حتى انتبهت!

.. لا وجود في الرف إلّا لحقيبته.. أين حقيبتي اذا؟!

.. تذكرت!.. لقد نسيتها فوق رصيف القطار الذي ركبته من ولفرهامتن.. لقد كان فيها كل ما أملك، إلا بضع نقود في جيبي.

توقف القطار في المحطة التالية بعد نصف ساعة.. سارعت إلى مفتش المحطة لأُعلمه بالحقيبة المنسية.. وعدني بأنه سيتصل فورا بمحطة ولفرهامتن، وإن وجدوها سيرسلوها مع القطار التالي إلى لندن كنك كروس.

وصل قطاري عند الظهيرة، وكانت هنالك ساعتان ليصل القطار التالي.. كنت اشك انهم سيجدون الحقيبة بعد اكثر من نصف ساعة وهي متروكة بين الصاعدين والنازلين من ركاب ولفرهامتن.

.. لم تكن لسعادتي حدود حين شاهدت من أول القطار التالي الذي وصل في موعده، مفتش القطار ينزل حاملا الحقيبة بيده قرب آخر عربة.. ركضت صوبه واستلمتها منه شاكرا.

تناولتُ وجبة غداء بسيط في مطعم شعبي قريب، وركبت الباص الذاهب باتجاه مكان سكني الجديد، واضعاً الحقيبة في كابينة خاصة بالحقائب تحت سلم الباص ذي الطابقين.

مرّ الباص بشارع عريض من شوارع لندن فشاهدت من النافذة قربي حشود من الناس تقف على الجانبين، وأفراد بوليس، واقفين، وآخرين على أحصنتهم.

_ ماالذي تنتظره هذه الحشود من الناس؟! سألت جاري في المقعد.

_ سيمرّ من هنا بعد قليل، موكب الزعيمين الروسيين خروشوف وبولغانين وهما في زيارة لبريطانيا..

.. لم يكمل حديثه.. قفزت من مكاني مسرعا صوب مخرج الباص، وما أن تباطأ قليلا، حتى قفزت الى الشارع وانضممت الى الحشد القريب.

" زعيما الاتحاد السوفياتي العظيم.. ياللصدفة السعيدة التي لن تتكرر.. زعيما البلد الذي هزّ العالم بثورته الكبرى.. ".. أفكار عديدة صاخبة تدور في راسي وأنا انتظر بلهفة حاشراً نفسي في مقدمة المنتظرين.

مرّت الدراجات النارية، تبعتها سيارة سوداء كبيرة.. ضجّ الواقفون، مصفقين بأدب انكليزي مرحّب محتشم.

.. لوّح الضيفان بايديهما للواقفين بابتسامة متحفظة.

كنتُ أقفز، وانا مأخوذ منفعل، أصفقّ بينهم بحرارة الهبت كفيّ، صارخا بأعلى صوتي (هورا!! هورا!! هورا!!).

بدأ الجميع بالانصراف كل في اتجاهه.

.. لا أزال أنا أقف مصعوقا في مكاني من الرصيف دون حراك..

.. سرتُ صوب أقرب موقف للباص، والنشوة بالمشهد العظيم الفريد لا يفارقني..

.. ركبت نفس رقم الباص السابق، وما ان وضعت قدمي عليه وشاهدت كابينة الحقائب تحت سلمه، حتى أدركت أنني أضعت حقيبة وجودي كله، وإلى الأبد هذه المرة.

في أمل أخير شبه ميئوس منه، سألتُ قاطع التذاكر كيف لي أن أبحث عن حقيبتي المفقودة، التي نسيتها على نفس خط االباص الذي أنا راكبه.

ارشدني إلى عنوان مستودع باصات المنطقة.

أعطيت مواصفات الحقيبة لأمين مخزن المفقودات، وساعة فقدانها ورقم الباص الذي كنت أستقله..

كاد قلبي ينخلع من الوجيب حين انصرف من وراء منصة المخزن للبحث عنها بين المفقودات.

.. لم أُصدّق عيناي وانا أطير من الفرح حين شاهدته يحملها، ثم يضعها على المنصة الخشبية بيني وبينه.

_ بكم تقدر محتويات حقيبتك؟ سأل الموظف.

أردت ان أعرّفه بمدى معزتها وأهميتها عندي فقلت مبالغا:

_ مائتا جنيه.

أخرج دفتر وصولات من مِجرّ قربه وقال:

_ عليك دفع عشرين باونا بدل إيجادها.. أي عشرة بالمائة من ثمنها

حين شاهد أن وجهي إمتقع وأنني شبه منهار سألني

_هل انت طالب؟

_ نعم. قلتها بوجل.

_ من إي مدينة جئت متنقلا بهذه الحقيبة الثقيلة؟

_ من ولفرهامتن..

_ وما الفرع الذي تدرسه؟

_ أنوي الالتحاق بالقسم المعماري في كلية بلندن.

_ إبني طالب جامعي مثلك هو في اكسفورد يدرس الادب الإغريقي.. ثم اردف مبتسما:

_ ربما حقيبتك لا تحتوي اشياء ثمينة لطالب مثلك، وقد يكون تقدير محتوياتها لا أكثر من عشرة باونات.. أليس ذلك صحيحا؟

_ هو بالضبط ما ذكرت!.. قلتها بحماس وبهجة الحياة تعود الي من جديد.

_ إدفعْ باونا واحدا فقط!

حررّ وصلا بذلك، وسلمني الحقيبة.

بعد أن شكرته كثيرا وغادرت، سمعته يقول ورائي بصوت عالٍ:

_ حذاري من السرحان أيها الشاب!.

بعد هذه الإنفعالات في اليوم المشهود، لم تكن عندي رغبة في قضاء بقية المساء وحدي في غرفة شبه جرداء من سكني الجديد.

ركبت الحافلة، واضعا الحقيبة جنب مقعدي، رغم اعتراض قاطع التذاكر وتوجهت صوب بيت جاك ووني.

***

مام!.. من الذي أتى محل سكنى جاك ومارثا؟

"_ تعال في موعدك الصباحي، المعتاد لتناول الإفطار معي ومع جاك:

نظرت اليّ الجارة العجوز السمينة من فوق عويناتها السميكة وهي تقف وراء أسلاك سياج الحديقة الواطيء: .

ثم حوّلت بصرها إلى جارتها هيلين، التي تقف في الجانب الآخر، وكأنها تطلب تاكيداً لما اقترحتْ..

_ نعم يا صافا، فقد تبدّلت مواعيد خروجي الصباحي.. لقد أبدل المعمل ساعة بدء العمل الى وقت مبكر آخر.. لا أرغب أن تتناول إفطارك وحدك، مارثا هي التي طلبت مني أن تشاركها ذلك.. بل سيجد إبنها الشاب إدوارد، القادم اليهما هو وخطيبته بعد يومين.. حينها وكما قالت لي مارثا، سيجد إدوارد آنذاك رفيقا ظريفاً على الإفطار..

- شكرا على هذا الإطراء مدام مارثا، سيكون ذلك من دواعي سروري".

***

لم تُجب هيلين على سؤالي وبقيت صامتة، ساهمة لفترة، وهي تعد الشاي لضيفها الذي اختفى لأكثر من عشرين عاما وظهر بكل كيانه دون اذى ظاهر، ظهر فجأة عليها من ذلك الـ " bloody middle east "..

_ مالذي حلّ بهما؟.. اين انتقلا.. هل هما بخير؟.. خبريني مام هيلين.. أنت تعرفين كم كنت، ولا أزال أُحبهما.. لم يغيبا، لا هما ولا إدوارد عن خاطري.. وكيف لي أن أنسى!!

.. وكيف يغيب ذلك الترحّاب والبسمة الحلوة لدى العجوزين وهما على مائدة الافطار كل صباح..

.. مارثا تنتقل بجسمها الممتليء بفرح ونشاط بين مائدة المطبخ والموقد.. الشاي!.. الماء المغلي.. بيضة مقلية مع النقانق!.. الخبز المحمّص..

_ أنت لا تتناول السكر مع الشاي!.. لقد عوّدتك هيلين وامها على برنامجهما الحربي.. كذلك الحليب؟!.. كلا.. كلا!!، فهذا شيء ضروري.. دع عنك هيلين الآن، فانت شاب في مرحلة البناء.. بناء الجسم والمستقبل.. الطاقة لازمة.. والحليب مصدر بناء الطاقة من صرخة الحياة الاولى.

***

_ هيلين! هل تسمحين باستعارة شابك الأسمر؟.. جاك ينتظر صحبته.

هذا السؤال يتناهى إلى سمعي كل صباح أحد من على عتبة باب هيلين.. فهذا موعد الجولة في سيارة جاك (الهمبر) الأثرية السوداء، تلك التي يعتزّ ويعتني بها كولده من مطلع عشريناته.. لقد إرتبط بهما هي ومارثا في نفس عام شبابه ذلك..

- كلاهما يحيطني بالوفاء والخدمة والرعاية والوِنس.. أحببتهما بصدق كما تحباني، لا تستغرب فحتى لهذا الحديد الاسود العتيق المتحرك فوق عجلات له مشاعر يبادلني بها.. يعتنيان بي، وأنا بهما.. لا ثالث لهما في ذلك إلا ولدي ادوارد..

سمعت ذلك من جاك لأكثر من مرة وهو يذكر مناقب سيارته العتيقة النادرة، حين يقف إلى جانبها قبل أيّة رحلة ويمسح بمنديله على زجاجها بحنان.

***

يدخل جاك بسيارته الأثرية في شعاب غابة ليست بعيدة، ويقف فجأة ليترجّل الى جانب شجرة عملاقة، ويشرح لي تفاصيل تأريخها، عمرها وسلالتها وعراقتها، والأحداث التي مرّت بجانبها وحولها عبر التأريخ.. أتأمله ملياً.. " يتحدث عن هذه الخشبة العملاقة الصامتة حديثه عن المعدن الاسود العتيق المتحرك.. نفس الحنان، وبنفس الحماس، بنفس الإنتماء إلى أحبته من حوله.. لابد وانه سيقول لاحقا أن هذه الخشبة الشامخة بتفرعاتها الممتدة وجذورها المنغرسة تبادله مشاعره ومحبته ".. نواصل التحرك..

.. جذع كبير يسدّ طريق الغابة الترابي.. يترجّل جاك من جديد.. يزيح الجذع الممتد الذي يقطع الطريق جانباً.. يتحرك بنا بضعة أمتار فنجتاز الموقع.. يترجّل من سيارته مرة اخرى.. يرفع الجذع المُزاح ليعيده برفق شديد إلى موقعه السابق القاطع للطريق..

.. أجمةٌ بتربة سوداء مفقعة.. ينبشُ بعود قريب إلتقطه فقاعة من سطح التربة.. ينحني ليلّم بضعة رؤوس من الفِطر.. يقربها من أنفي ملوثة بتربتها النديّة.. أشمّ عطر الأرض الحمضي العبق ونفحة الفِطر الطريّة.

.. الطائر الأسود الغرد يناكش طعامه.. يدقّ بمنقاره وبإصرار خنفساء سوداء كبيرة.. يطفيء جاك المُحرّك.. يَخرسُ الجميع..

.. يرفع الطائر فريسته ويدقها بالارض، مرة واثنين وثلاث.. ومن جديد مرة واخرى وثالثة.. هكذا حتى تتهشم دروع الحشرة السوداء..

.. بعد أن أكمل غذائه، تحرّك الطائر بهيبة ملكية صوب عتمة الغابة..

.. يصمت جاك برهة متاملا، مبتسما برهة أخرى قبل ان يشغّل مُحرّك سيارته.

***

توقفت سيارة فارهة أمام بيت جاك، (كانت مارثا قد إستعارتني من سيدة سكني هيلين لأكون في دارهم ساعة قدوم إبنهم الوحيد).. ترجّلت من السيارة فتاة شقراء أنيقة رشيقة، ثم توجّهت لصندوق السيارة لتُخرج منه مقعدا متحركا.. قرّبتْ المقعد من الباب الأمامي.. وضع إداورد ذراعه اليمنى حول كتفها.. مدّ نصف جسمه خارج السيارة.. وضع ذراعه اليسرى حول كتفها الآخر، وكما الطفل الرضيع يتشبث بأمه، تعلّق بها، ليسقط جسده المتدلّى فوق المقعد المتحرك.. بعد أن تاكّد من إستقرار جذعه، إنحنى ليسحب ساقيه المتهدلتين ويضع حذائيه فوق دوّاسة المقعد المتحرك..

" اذا هذا هو ادوارد ابن جاك ومارثا الذي أنتظره.. هذا هو لاعب هجوم فريق تشلسي الشهير لكرة القدم، المهندس المعماري إدوارد.. إدوارد الذي كانت امه مارثا، تعدد لي مناقبه بعينين دامعتين وهي تهيّء إفطار الصباح كل يوم.. "

إدوارد جميل الطلعة، ذو الوجه الجميل المتورد، بخصلة شعر ذهبية تنسدل على جبينه فيزيحها بين الحين والآخر.. إدوارد الجميل المصاب بالشلل النصفي قبل سنتين.

- لمْ تُخلفا وعديكما بالقدوم هذه المرة!

قالت مارثا مخاطبة ألكساندرا، ثم لتحضنها بحرارة، ولتنحني وتحتضن إدوارد من فوق كرسيه المتحرك.

_ أُقدّم اليكَ صديقنا من بلاد مابين النهرين (صافا)، الذي طالما حدثتك عنه، والذي ينتظر بلهفة أن يهزمك فيما تدّعيه من بطولات شطرنجية.

قال ذلك جاك مبتسما برضى وهو يستند الى حافة مدخل صالة الجلوس متملياً الشمل الفرِحْ الذي إلتمّ في مدخل الدار.

تقدمتُ وحييت الكساندرا وإدوارد بعدها.

حين دخل الجميع صالة الجلوس، كانت مارثا لا تزال لا تتمالك نفسها، إما تضحك بفرح شبه هستيري وهي تعدّل شرشف المائدة، أو تنفض الغبار الوهمي

عن الإريكة النظيفة، أو تعيد ترتيب قطع الخزف فوق رفّ المدفأة.. تسارع إلى المطبخ لتمسح عينيها الدامعتين، ومن هناك يعلو صوتها:

_ سيحضرُ الشاي خلال دقائق..

خلال هذه الدقائق تفلح أخيرا في السيطرة على إعصار الإنفعالات وهي تعد أكواب الشاي وصحون البسكويت والملاعق وعلب المربى ودورق الحليب وحافظة السكر الخزفية، ولتبحث عن شيء تجهله في خزانات المطبخ.. تهدأ قليلا.. تفتح الباب المفضي إلى الحديقة الخلفية.. تقف بضع دقاءق هناك.. تمسح عينيها وتعود لتنقل لوازم الشاي إلى مائدة صالة الجلوس بعد أن تأخذ نفسا عميقا.

_ سأعرف ما الذي تعدّ له من خطط، وساكشف موقع ضعفك وقوتك في هذه الجولة الأولى.

قالها إدوارد مبتسما من وراء منضدة البيادق والافيال والقلاع والخيل العاجية المتقابلة تهيئا للمعركة القادمة.

.. أختلت مارثا بالكسندرا في زاوية من الصالة، ودار حديث هامس، بدتْ في وجهيهما فيه معالم جد وتساءل واندهاش وبسمات فرح، وهما يقربان راسيهما من فوق الإريّكة العريضة، في حين جلس جاك يدخن غليونه فوق مقعده الهزاز وهو يتصفّح صحيفة اليوم المسائية.

_ شاه!.. مات!

أعلن إدوارد. واردف:

_ لم يكن ذلك سهلاً يا صاحبي.. لن أستهين بك في الدور الثاني.. واصل كلامه وهو يعيد ادوات الشطرنج إلى مواقعها من الرقعة.

.. كانت نتيجة الشوط الثاني التعادل..

_ بل وسأغلبك في الشوط القادم غدا.. هيه! سترى قوة الشرق الغامضة._ سافتقد فيك لاعبا ماهرا في كينيا.. لنا جولات معك قبل سفرنا أنا وألكسندرا إلى هناك بعد إسبوعين.

_ اذاً حزمتما أمركما في الذهاب؟ تساءل جاك، وهو ينفث دخان غليونه وينفض رماده في صحن قريب.

_ نعم، فالعَقد مغرٍ، والمكان مثير.. سيكون زواجنا على عجل وباحتفال بسيط الأسبوع القادم.. لقد طلبوا التحاقي بالمشروع بأسرع ما يستطاع.

_ دعنا نحتفل هذه الليلة بهذا القرار.. لم ترَ ألكسندرا ولا صافا هذا المكان المميّز الذي تعشقه مثلي يا إدوارد.

***

كان المكان حانة ومطعم عائلي صغير فوق رابية من الغابة..

.. جذوع جدرانها وسقفها الخشبية العاتمة الضخمة، وإنارتها الخافتة بفوانيس متقادمة، ومصاطب جلوسها، تذكّر ببيوت المستكشفين الأوائل للقارة الجديدة.. نوافذها الضيقة تشرف على الغابة الداكنة المحيطة والجدول المتحدّر.

.. عجوزان يخدمان ويسكنان فيها، يتناوبان في الحركة بين الموائد القليلة والمطبخ، الذي تصل الينا منه روائح الطعام المعدّ ورنين الصحون وأوعية الطبخ الخافتة..

_ هذا (الشيري) المعتّق من تخميري وإعدادي أنا.. ولست تجهله يا جاك فانت تطلبه لك ولغيرك كلما قدمت خلال أكثر من عشرين سنة.. خصوصا حين تأتي في ليالي الشتاء الباردة..

.. وضعت السيدة الهرمة دورقا كبيرا على المائدة.

ودبّت إلى المطبخ لتجهّز ما طلبه الجميع من أطعمة.

.. كانت بقية الطاولات فارغة، وكان خرير الجدول المتحدّر من جوار الحانة يسمع ممتزجا بوشوشة أشجار الغابة الكثيفة المحيطة.

الحديث في معظمه على فنجان القهوة بعد العشاء المقدم يتنقل من خطط كينيا في المدينة الريفية، طاقم العمل هناك، البيت المعدّ لإدوارد وألكسندرا، إلى استعدادات الزواج السريعة الأسبوع القادم..

.. زواج مدني يحظره أقرب المقربين، وانا منهم، يعقبه احتفال موجز في مطعم فندق قريب..

.. تلا ذلك صمت أعقبه تأمل لتفاصيل المكان الفريد وأعمال اللوحات المطرّزة المعلقة على الجدران، والتي لا تزال ربة الحانة جالسة في أحد أركانها منهمكة في حياكة إحداها..

حين شاهدت ربة الحانة العجوز إهتمام الحضور بأعمالها، تحركت بظهرها المقوس صوب المائدة، حاملة عملها الأخير لتطلعنا عليه..

.. تشعب الحديث بها.. من هواياتها إلى تأريخ الحانة والقرية القريبة منه الى طبيعة المنطقة الهادئة والسكان الأهدأ.

واصلت ربة الحانة العجوز:

_ لقد سكن آرثر كونان دويل في هذه القرية.. ومنزله هناك الآن مزار السائحين.. يا لها من شخصية فاتنة، وادعة، ساكنة صموت، غير تلك التي تصخب به رواياته من جرائم ومطاردات والغاز..

واصلت حديثها..

_.. في منتصف ليلة ظلماء من الصيف إستيقظ الجميع على دويّ طلق ناري في الغابة الكثيفة القريبة من القرية الوادعة.. .هرع معظمهم بملابس نومهم خارج بيوتهم يستطلعون الأمر الغريب.. .. أخذت جماعة منهم فوانيسها وجاسوا بين أشجار الغابة وأجماتها بحثا عن قتيل.. او قاتل..

.. بعد بحث غير قليل، حذرٍ مشحون بالترقب والرهبة، وجدوا أخيراً ضالتهم..

.. فانوس معلّق على غصن دوحة ضخمة، يفترش الارض تحتها آرثر كونان دويل، مستندا بظهره على جذعها، وهو منغمس في الكتابة على ملزمة أوراق فوق ركبتيه..

.. لم ينتبه حتى إلى حركة القادمين القريبة..

.. كان إلى جواره على أرضية الغابة غدّارة قديمة.

.. يكتب.. يتخيل.. يطلق عيارا ناريا في لحمة الليل والغابة الساكنين، ليستوحي من دويّ الإطلاقة وانطلاقتها، إنفجارها، وصداها، أجواء الجريمة الغامضة.. لعله يصل بذلك إلى كشف اللغز المحيّر الذي يحيط بما يكتبه للقراء، والذي عليه أن يحلّه بنفسه قبل قرّاءه في عتمة الغابة.

.. لم يخرج سكان القرية مذعورين بملابس نومهم بعد ذلك، حين ترددت مرات أخرى في صمت الليالي الحالكة أصوات أعيرة نارية مشابهة، يرنّ صداها في الغابة القريبة.

واصلت ربة الحانة العجوز.

***

_ لم تجيبي على سؤالي مام هيلين.. أين جاك ومارثا الآن.. هل لي أن أجدهما في مكان ما؟.. أنت تعلمين كم أرغب في ذلك.

سرحتْ بعيدا بصمت برهة ثم نظرت إليّ بإشفاق

_ لقد سمعتُ سؤالك.. تجاهلته حينا ولم أُجب لعلك تنساه..

ثم واصلت حديثها وكأنها تخاطب الفضاء المجهول الذي يحيطها.

***

_ بعد أن غادرتنا عائدا إلى بلادك ببضع سنين، لم يكن أقرب لي في الجيرة منهما.. هذين العجوزين السعيدين الراضيين، العارفين بهبة الحياة وروعتها.. كنت ألتقي بهما مرات عديدة في الأسبوع الواحد.

.. كانت مارثا تهرع إليّ بوجه يقطر بِشرا كلما وصلت إليها رسالة من كينيا.

.. تعيد عليّ بزهوٍ، أثناء ارتشاف فنجان قهوة أُعدّه، مقاطع مما كتبه إداورد أو ألكسندرا..

وهل يترك الزمن اللعين كل شيء جميل في مساره..

.. مات إدواردا!.. ماتت الكسندرا معه!.. إغتالهما وباء لعين حلّ في تلك الأصقاع الأفريقية..

لم أستطع رؤية مارثا إلّا عند مراسم دفن جثمانيهما المُرسلين.. لم استطع حتى أن أُوصل تعازيّ وألمي إليها فقد كانت غائبة عن هذا العالم.. كيان لا وعي فيه يحتضنه ويسنده جاك بعينين ذابلتين دامعتين..

مرت أيام وأشهر، أرى فيها جاك لماما لوحده دون مارثا، حين يخرج ليستقل سيارته، بعد أن يتأكد بحرص كبير من إقفال باب داره بالمفتاح.

.. يوجز في إجابة تحيتي، وحين أسأله عن مارثا وأحوالها، يسارع بركوب السيارة مجيبا على عجل " إنها جيدة.. هي بخير "وينطلق مبتعدا.

هكذا مرت أشهر عديدة..

.. او لا أكثر من " هي بخير.. جيدة.. بخير " ثم ينطلق.

.. ثم كان الحادث الذي ظل الجيران يتناقلونه طويلا عبر الأبواب..

***

مارثا تسير عارية في نهار شتاء بارد..

.. يبدو أن جاك وفي أحد مشاويره العاجلة، خرج ونسي أن يقفل الباب وراءه بالمفتاح كعادته مؤخراً..

.. كانت مارثا تسير كالتائه في ضباب كثيف، وجسمها العاري الممتليء يترجرج بطيات بطنها المتهدلة القرمزية من البرد، تهيم بعينين جاحظتين وشعر مبعثر فضّي منكوش.. تدمدم خليط عبارات غير مفهومة، وتمد كفيها الى المارة في تساؤل باكٍ..

.. سارع أحد الجيران ممن لمح هذا المنظر الغريب عبر نافذته، فحمل هو وزوجته أغطية صوفية، ليلفّ جسدها العاري به، وبكلمات رقيقة،، أحاطاها بذراعيهما برفق ووجها مسارها صوب باب بيتها المُشرع..

لم تَطل حيرتهما في الخطوة التالية الواجب اتخاذها، فقد وصل جاك راجعاً من مشواره القصير.. شكرهما ورجاهما باكيا، ألا يتحدثا بالخبر لأيّ مخلوق كان، وأوضح لهما أنه كان يرعى وضعها التعس هذا للأشهر الأخيرة بنفسه دون مراجعة مستشفى أو طبابة..

.. " سيأخذوها مني.. سيضعوها في الحجر في مستشفى عقلي.. لن تخرج من هناك.. سأموت دونها.. لا أستطيع العيش دون مارثا.. هي ما تبقى لي في هذه الدنيا.. ".

.. في المرة الثانية غافلته خارجة إلى حديقة الدار الخلفية، عارية وكما المرة الاولى، وعبرت سياجات حدائق الجيران الوطئة الواحدة تلو الاخرى، لتهيم في زقاق صغير ينحدر إلى محطة القطار القريبة..

***

.. لم يرها جاك بعد ذلك، فقد اتصلوا من هناك بالإسعاف، ومنها إلى حَجزْ الحالات الخطرة في مستشفى الأمراض العقلية في ضاحية من ضواحي لندن القريبة.

قابل جاك أطباء القسم هناك.. حاول إقناعهم بانه مثلما كان حريصا عليها في رعايته خلال الأشهر الفائتة، فسيحيطها بنفس الرعاية وأكثر، ولكن في بيتهما الذي سكناه ثلاثين عاما.. سيكون على اتصال دائم بأطباء القسم في المستشفى لأخذ الإرشادات الضرورية.. سيخضعها لمعاينة طبيب خاص يزورها بين الحين والاخر..

.. حين لم يفلح بإقناعهم بذلك.. أخذ بالتوسل ثم البكاء.. وحين لم ينفع كل ذلك بدأ بالصراخ الهائج " أعطوني زوجتي!.. ردّوا إليّ مارثا ايها السجانون القساة!.. لن أُغادر دون مارثا.. لن أعيش دون مارثا.. "

قام بزيارة المستشفى كل يوم، حاملا مرة زهورا، ومرة أخرى فاكهة، فعلب حلوى، فاغطية من فراشها.. لم يسمح له بدخول قسم الحالات الخطرة لرؤيتها.. كانت كل زيارة تنتهي بهياج عصبي وتكرار " أعطوني زوجتي إ.. ردّوا اليّ مارثا!.. .. " نفس الصراخ الأول الهائج.

.. اخذ ياتي كل ليلة إلى المستشفى المشددة الحراسة ويبدأ بالصراخ من خلف قضبان بوابتها الحديدية " أعطوني زوجتي.. ردوا إليّ مارثا.. "،.. ثم يعود لينتظر في سيارته الأثرية السوداء، في ليال وصل الزمهرير فيها إلى خمسة عشرة تحت الصفر..

.. وجدوه جثة باردة داخلها في صباح ما إثر نوبة قلبية كانت تنتظره.

***

_ هل ترغب أن ترى (وِني)؟.. تعيش الآن قريبا في شارعنا مع شاب ضخم أسود لم نره في الجوار.

سألتني مام هيلين، وهي تضع فنجان قهوتها على المنضدة.. ثم واصلت حديثها:

_ بعد أن تركتْ وِني جون.. نسيت أنك لا تعرف ذلك.. حسنا..

.. لقد تركت جون بعد عودتك إلى بلدك بفترة قصيرة..

.. عاشرتْ هذا وذاك من شبان شبه متسكعين، واحداً تلوالآخر لفترات غير طويلة، كانوا يتركونها بعدها لتبحث عن جديد.

.. لم يكن ذلك دون إشكالات وفضائح وبوليس أحيانا..

.. آخرهم شاب من هايتي، سرق مدخراتها وحليها وهرب، ولم يعثر البوليس له على أثر.. كان جون خلالها يرقد وحيداً في المستشفى وهو يعاني من نوبات ربو أُصيب به بعد مفارقة وني له.

.. مات في إحداها، بما تطلقون عليه أنتم الأطباء، أزمة ربو حادة.

_ كلا يا مام هيلين لا أرغب بتاتا في أن أرى (وتمالكت نفسي أن اقول هذه العاهرة) المرأة عديمة الوفاء.. قلتها بألم بعد تردد قليل واردفت:

_ لم يكن جون – هذا الرجل الطيب – يستحق مثل هذه النهاية.

***

حلّ الظلام حينما ترجلتٌ من قطار الضواحي.

كان الرصيف خاليا والريح شديدة ندية ترشّ وجهي برذاذ بارد، فأحكمت معطفي وأنا أغادر المحطة مستديراً إلى اليمين. وبعد أن عبرت بضعة بيوت بدأت بالتمعن في اللوحات الصغيرة المثبتة قرب حواشي الأبواب.. ٥٢.. ٥٠.. ٤٨. ربما كان٥٢.وعدت من جديد أتمعن في شكل الأبواب والنوافذ. لقد مضى قرابة العام، والبيوت و الأبواب تتشابه وما الفرق بين ٥٠ و٥٢و ٥٢، كلها أرقام.. كمْ من الأرقام علينا أن نتذكر، أرقام الباصات، والبيوت، والتلفونات، وأعمار الناس، والنقود التي نصرف وتلك التي نستدين، وجداول الضرب والجذور التربيعية..

.ليس هو ٤٦، وهو ليس بهذا البعد عن نهاية جسرالقطار.. ٥٢ فلنجرب، فالنور مضاء في الصالة، وهذا هو الوقت الذي يجلس فيه" جون" على كرسيه الهزّاز للقراءة، وتنشغل فيه" وِني" بالحياكة على الكنبة القصية وفي الطرف الآخر من جون.

أمسكت باقة الورد بيدي اليسرى ونفضت بعضاً من الرذاذ العالق على المعطف قبل ان أدق الجرس. أُضيء نور الممر وفتحت الباب عن وني، بشعر معقّص منسرح، و رداء بيت وردي أنيق.. شيئ ما قد تغيّر!!

- مفاجئة.. أليس كذلك؟!

- صافا!!.. صافا!!، حقا إنها مفاجئة سارة.

عبرتُ عتبة الباب وقبل أن أمدّ يدي مصافحا، وجدتها تعانقني بترحاب ومودّة.

.. هبّ شذى عطر شرقي.. وجدتني أنسى التحفظ المزمع في لقائها، وأُجيب بعناق ودود دافيء.

- هل حقيبة السفر تلك عائدة لك؟ أجبت بابتسامة، وعد ت خطوة إلى الوراء لأسحب الحقيبة المنسية عند عتبة الباب الى الداخل.

نهض جون من كرسيه بفرح واضح، مصحوب ببعض الدهشة، تاركا جريد ته تسقط على الأرض وتقدّم إلى مدخل الصالة حيث أقف وتعانقنا بحرارة.. وقفنا نتأمل بعضنا فترة.. شيء ما قد تغيّر!!

.(وِني)، هنالك نضارة وحيوية جديدة ملحوظة، و(جون) يبدو متعبا وأكبر سنا.

- أنتَ قادم لقضاء إجازة قصيرة معنا؟، سأل جون بفرح، حين انتبه إلى الحقيبة المتروكة في الممر.

- كلا.. أنا عائد الى وطني.

- تعني في إجازة؟

كلا- For good الى الأبد.

- ودراستك هنا؟

- هناك، سابدأ كل شيء من جديد.. كفاني ضياعاً.

- يبدو إنها قصة طويلة.. هل تناولت عشاءك؟ بإمكان وِني أن تحضر شيئا سريعا ودافئا.

- كلا، شكرا لقد كان هنالك مطعم في قطار الشمال.. جئتكم مودّعا فقطاري الذاهب إلى نيوهافن سيغادر في التاسعة ومن هناك عبارة المانش إلى دوفر.

ضاع جون في لحظة ذهول وانتفض وكانه يصحو من غفوة عابرة.

- يبدو أن الموضوع جدي! سنتحدث فيه مع كوب دافيء من الشاي تعده لنا وِني.

هبّت وني من مقعدها بعدما كانت تتابع الحوار القصير بدهشة وصمت، ثم عقّبت:

- يبدو انك جاد فيما سمعته، ستذهب وتنسانا دون شك.. سأذهب لإعداد الشاي.

سكبت لي وني كوبا من الشاي و قدمت إحدى فطائرها الساخنة.

- هل ستعود إلى دراستك الطبية في بغداد.. إنتهت اذاً مشاريع المعمار والفن وكلية همارسمث الفنية؟

- لن أعود الى بغداد في الوقت الحالي، فأغلب أفراد عائلتي قد انتقلوا الى دمشق.. حسب علمي ليست هنالك كلية للهندسة المعمارية في دمشق ولا أكاديمية فنون.. لا شيء غير العودة مرغما إلى دراسة الطب هناك.

- هل تعتقد أن الجو مناسب للعودة الآن في هذا الجو المحتقن الخطر في المنطقة، بعد أن قام هذا الهتلر المجنون بتأميم قناة السويس؟.قال جون عبارته الأخيرة باستياء ظاهر.

- ربما إن حسم قرار عودتي قد تمْ، لأن الجو محتقن كما تقول، ولأن أحداثا هامة كتأميم القناة - التي ذكرت – تحدث في بلادي و هي التي حفزّتني أكثر، كي لا أكون بعيدا عن المعركة.

- اذا أنت تقر بأنها معركة تلك التي أعلنها ناصر علينا.

- نعم، ولكنها معركة لاسترداد حقوق مغتصبة.. معركة عادلة ومشرفة!!

- ولكن القناة قناتنا والشركة ملكنا، جهدنا وبناءنا، قالها جون بغضب وقد علا صوته.

- القناة فوق أرض مصرية، وحُفرت بأيدٍ مصرية وبجهد عمالها الذين مات منهم أكثر من مائة ألف راحوا ضحية السخرة والجوع والعطش والسياط التي ألهبتْ أجسادهم.

- إنكم قوم جاحدون متخلفون تنكرون دورنا في تحضيركم.. نهض عن كرسيه وقد احتقن وجهه واردف:

-.. نعم جاحدون وليس غريبا أنكم قد تستولون على شركات نفطنا أيضا!!

- نفطكم؟!.. نفطكم؟!.. هذا وكنت تقول إنك إشتراكي!!.. هل السعودية والعراق والخليج أرضكم؟!.. وكل ما في هذه الارض من بترول هو بترولكم؟! وكل ما عليها لكم ونحن ايضا ملككم، أهي تجارة عبيد اخرى تمارسونها، نهضتُ بغضب ورميت منديل الطعام على المائدة، واكملت كلامي وأنا أتّجه لمغادرة الصالة:

-.. نعم سنفعل ذلك قريبا، سنأمم النفط!.. وسنكسر كل يد تحاول منعنا من ذلك.

قبل ان أصل إلى مدخل غرفة الاستقبال، كانت وِني، واقفة بيني و بين المدخل بحركة تمنعني فيها من التقدم.

.. طوّقت عنقي بذراعيها.. قبّلتْ خدي، ثم استدارت بغضب عارم صوب جون

- لاشك أنك قد جُننت يا جون، لقد أتاك مودِّعا قبل عودته الى الوطن.!

قادتني برفق إلى كنبة قريبة..

جلستُ مطرقا بكآبة شديدة. لم تمض إلا لحظة قصيرة حتى سمعت دمدمة جون تقترب مني.. إلتقطت منها ما أدركت أنه كان إعتذارا.

رفعتُ رأسي ببطء لأجد جون واقفا بارتباك ظاهروجهه المتغضن قد توهّج بالاحتقان.. مدّ ذراعه تجاهي:

- هل تقبل إعتذاري.. إني جد آسف، قال ذلك بصوت مرتجف غلب عليه الانفعال.

نهضت واحتضنته بحرارة دون أن أنطق.

- يبدو أن ضجيج الصحافة والإذاعة والتلفزيون حول التأميم قد بثت الهستيريا في كل مكان، ووصل ذلك إلى بيتي.

قال ذلك وهو يختار الكنبة المجاورة لي لجلوسه..

كان هادئا وحزينا وبعد صمت ثقيل لم يطل، نهض داعكاً كفيه بنشاط ومرح:

- هيا يا وني، حضّري من فطائرك التي يحبها صافا، فيبدو أن طريق عودته طويل، ولا تنسي أن تجففي معطفه وتضعي فيه لفاعا صوفيا يقيه رياح عبور المانش.. ثم مستديرا نحوي:

- أطلِعني على تفاصيل مسار عودتك.. وهل أن كل شيء قد اتممت ترتيبه، أم أن الطريق مغامرة من مغامراتك، وكل مفاجأت المجهول العارضة فيه، تُحلُّ في حينه؟

***

كانت الساعة قد قاربت التاسعة، حين فتح باب سيارته الصغيرة السوداء لأجلس

إلى جواره.أوقف السيارة قرب محطة فكتوريا، لم ينزل مباشرة وبالطبع لم أتحرك أنا بدوري، فلا يزال هناك متسع من الوقت.

- هل تذكر آخر مرة خرجنا معا بهذه السيارة.. لقد كان الوقت ليلاً أيضا. قال ذلك بسهوم وبصره يخترق الواجهة الزجاجية للسيارة أمامه ؤيخترق الضباب العاتم الكثيف، وكانه يحاول جاهدا أن يخترق الغيب.

- بالطبع لم تنس ما بحتُ لك به.. ولم تنس مخاوفي التي صارحتك بها. وبعد لحظة صمت متوترة،.. لقد كنتُ محقاً ياصد يقي، لقد أفلت المارد من قمقمه.. لقد تغيّرت وِني، ويبدو أنني قريبا سأُرمى وحيدا في العالم المخيف. ثم مُبدلا نبرة حديثه، ماعلينا.. لن أحمّلك مِتاعا ثقيلا في سفرك.

أخرجَ أمتعتي من صندوق السيارة الخلفي، ورافقني إلى عربة القطار المتجه إلى نيوهافن، وقبل أن أصعد الى العربة، تناول المعطف المعلّق على ذراعي وألبسني إياه بعد ان أحكم اللفاع الصوفي على عنقي.

- حاذر من الرياح الباردة عند عبورك المانش.

لم يغادر رصيف المحطة عند تحرك القطار حتى طواه الضباب المتكاثف.

***

سكنت مع جون و وِني فترة عدة أسابيع بعد ان طلبت منهم صديقتهم وجارتهم السيدة هيلين ستيفنسون، وبرجاء حار أن ياخذوني لديهم كطالب مقيم وبنفس المبلغ الذي كنت أدفعه لها، لقاء كل تكاليف السكن والرعاية، ريثما ينتهي البناءون من الترميم الكامل لدار السيدة هيلين (مام هيلين) حيث كنت أقيم.

إعتذر الإثنان جون و وني عن ذلك، لأن ذلك سيغير طبيعة حياتهما، البالغة الإستقرار والعزلة- " طيْران وادعان فوق دوح منعزل " – وفق ما كانت تصفهما السيدة ستيفنسون.

كان لإلحاح تلك الجارة العجوز الطيبة، وصديقة عمرهم التي لا تعوض، أثره في عودتهم عن ممانعتهم القطعية وقبول بقائي معهم فترة الترميم التي تمتد أسابيع قليلة لاغير.

بعد تحفّظ وتعامل حذر مهذب مع الطاريء الجديد، والذي لم يدم طويلا، بدأت الأمور تتغير في البيت، فالسكون الذي كان يلفّ مائدة العشاء، والذي كان يقطعه صوت الملاعق أو إبدال الصحون، أخذ ت تدخل عليه عبارات مجاملة واستفسار عن سير الدراسة، أو عن المواصلات إلى كليتي، وعن الصعوبات التي قد أُجابهها في اللغة والمجتمع الجديدين عليّ. وتطوّرت لتنتقل إلى حياتي السابقة في بلدي وعن مشاريعي المستقبلية، واخذنا نتبادل ابتسامات فيها دفء ومودة، وبدأ الإهتمام يتزايد بكل ما يتعلق براحتي في سكني ومأكلي وحتى ملبسى الذي أصبح محطّ اهتمام وِني قبل مغادرتي إلى دراستي كل صباح.

لم يمض أكثر من إسبوعين إلا وكانت العلاقة بجون تتطور من الحديث الهاديء الذي يدور بيننا بعد عودته من عمله في (يانصيب كرة القدم) – pools-، الى دور في لعبة الشطرنج او الى إسماعي صوته المسَجل على اسطوانة، كان هو قد دفع ثمن تسجيلها، ليستمع اليها وقت راحته، او ليُسمع زائراً اوصديقا يأمن تماما ألا يقول فيه غير إطراء معقول، حتى مع علمه بأن ذلك لايتعدى المجاملة التي تقتضيها حسن الضيافة. أما وِني، فكانت الابتسامة لا

تغيب عنها حين نتقابل صدفة في الممر أو عندما ترفع راسها من لوح تطريزها بين آن واخر في غرفة الجلوس بعد العشاء، وكانت بين الحين والآخر تشترك معي وجون في الحديث الذي غالبا ما يتناول سيرة جون السابقة ومواقفه المتعاطفة مع الشعوب المقهورة، او إيمانه التام بالاشتراكية الفابية، ودورها الأكيد في حلّ مشاكل البشرية جمعاء.

***

إنتهت الترميمات في دار مام هيلين وآن أوان عودتي إليها، وكنت أُحس أن هذا الأمر، بدأ يؤسف جون و وِني وبدءا يسألاني، وإن بشكل غير مباشر، هل هنالك إلزام في قضية عودتي إلى سكني السابق؟، وأنهما في حالة رغبتي للاستمرار في البقاء معهما، فليس من الصعب الإتفاق مع السيدة ستيفنسن حول ذلك، وأن مسألة ما سادفع اسبوعيا ليس بقضية ذات با ل.

لقد أحببتهما حقا. وكانت علاقتي بجون أكثر عمقاً مما هي مع زوجته، ورغم إنه كان يأخذ مكان الأب في الإرشاد وفق تجاربه، إلا أنه في الوقت ذاته قد أذاب جليد فارق العمرلنتعامل - في معظم الأحيان – كأصدقاء خلّص.

***

لم يمض وقت طويل على مغادرتي إياهم، حتى كان جون يطرق الباب علينا في أحد الأماسي، وأثناء تناوله الشاي معي ومع مام هيلين و والدتها (صبية التسعين)، التي كانت ترقص لي الـ " كان كان "، كلما عقصت حاجبيّ ونكّست رأسي في احدى كآباتي المتكررة، عرض جون شكواه علينا، ولم تكن هذه الشكوى إلا من الوحشة والفراغ الذي يعانيانه، هو و وني بعد مغادرتي لهما.

وكان الحل المقترح والذي قدِم جون أساسا من أجله، هو إيجاد احد الطلبة ممن يبحثون عن إقامة مع احدى العوائل الانكليزية.

أخذتُ الامر على عاتقي، ولم أترك أيّاً من الأصدقاء إلا وأبلغته عن مرشح، خلوق وامين، لمثل هذا المكان والعائلة الطيبة التي تملكه.

لم يمض أكثر من اسبوعين، إلا وكان ثابت، وهو ابن عائلة بغدادية موسرة، والقادم إلى لندن للدراسة على حسابه الخاص، يحظى بنفس تلك الرعاية التي حظيت بها في بيت جون و وني، ما لم يكن اكثر.

من خلال زياراتي لهما أول الامر، ثم زياراتي الخاصة له لاحقا ربطتني به صداقة، ذات حدود حذرة، فضلت ولسبب لا أدركه، غير إحساس داخلي مبهم، عدم اختراق تلك الحدود لصداقة أكثر دفئا وعمقا.

وكان قبولي في سندرلاند لمرحلتي الدراسية التالية سببا في أن أغيب عن زيارة جون و وِني فترات طويلة، أُقابل فيها بترحاب شديد كلّما أُتيحت لي الفرصة لزيارتهم أثناء نزولي بضعة أيام إلى لندن لإنجاز عمل اومهمة.

.. كنت أجدهما على وضعهما إلا بعض تبدل على وِني لم أستوعبه في حينه.

.. لم يتركني جون مرة واحدة دون أن يوصلني بسيارته القديمة السوداء أما الى حيث أُقيم موقتا، أو إلى محطة قطارات الشمال التي أغادر منها عائدا.

كان جون وقبل مجيء ثابت، وفي نوبة من نوبات إحساسه بالوحدة الجديدة عليه، قد أقنع وِني بقبول فتاة ألمانية تقدمت للعمل كمساعدة (au-pair) على أن تفد إليهما في نهاية الصيف، وكان كثير من الشباب والشابات الألمان يبحثون

عن أيّة فرصة عمل في بريطانيا أو فرنسا أو سويسرا اوحتى عن مأوى فقط يدفئهم ويسدّ عليهم جوع البلد المدمّر المهزوم.

.. وكان أن سكن ثابت عندهم، بدلاً مني بعد حين قبل مجيء (المساعدة) إيلزا..

حين قدمت، تلك الشابة الرشيقة الجميلة الشقراء ذات الوجه الطفولي البريء والعينين الزرقاوين الواسعتين المنبهرتين دوما، كان ثابت قد استقر لديهم، كانت غرفتها في الدور الأول مجاورة لغرفة الزوجين وغرفة ثابت.

.. مجازا هو القول إنها غرفة، فقد كانت مستودعا أُخلي من أدوات التظيف والحمام ومستلزمات البيت الأخرى..

.. لا تكاد الغرفة تتسع إلا لسرير فردي ضيق، وخزانة صغيرة في زاويتها للملابس.. لا مجال فيها لكرسي أو طاولة، ولا نافذة يُرى منها ضوء الله في نهاره.

تصحو (إيلزا) قبل الجميع عند الفجر، تقوم بتنظيف غرفة الإستقبال وصالة الجلوس والمطبخ، ترتب قطع الأثاث فيها، تنفّض أوجه وسائدها ومساند مقاعدها، تمسح أيّ غبار عالق بأضوية الغرفتين ثم تتوجه إلى المطبخ، وبعد أن تغسل بقية الصحون التي تركها الجميع آخر الليل بعد صعودها قبلهم إلى غرفتها، لكي لا تكون في جلسة مخدومها واحاديثهم او مشاهدتهم التلفاز، تبدأ بإعداد إفطار الصباح.. تنتظر نزول سادتها من الأعلى..

.. تتناول افطارها في المطبخ، بعد أن تنهي إعداد وحمل افطار الجميع إلى غرفة الإستقبال حيث مائدة الطعام..

.. تقوم بنفس هذا البرنامج عند غداء العائلة وعشاءها.

بالطبع تقوم ايلزا بجمع الملابس والأغطية الواجب غسلها، ثم كيّها بعد ذلك وترتيب غرف النوم بعد تنظيفها في الطابق الأعلى..

.. عليها أن تسأل وني بين حين وآخر طوال النهار وقبل صعودها إلى غرفتها ليلا:

_ هل هناك شيء آخر تحتاجينه مسز سفنسن؟

.. إيلزا خادمة سخرة، بلقب فخري (au-pair: مساعدة)، لا تتقاضى أيّ أجر محدد، غير مايشبعها مما يبقى من طعام مخدوميها إضافة إلى سكنها وما تجود به أياديهم عند نهاية الإسبوع، حين يسمح لها بأن تخرج فيه بالهبة النقدية الشحيحة التي حصلت عليها، بعد ان تدخر ما يمكن إبقاءه ليكون في حوزتها حين تعود إلى مدينتها المدمرة في ألمانيا.

في زياراتي لهم بين الحين والاخر.. كانت أمور ايلزا عادية وفق ما يفرضها وضعها المنكسر.. وكلاهما منكسر البلد المهدّم وناسه.

كان جون يوليها كثيرا من العطف، غير أن علاقة وِني كانت متحفظة معها منذ البداية.. يهبها جون بضعة شلنات إضافية في أماسي السبت حين تخرج حرة لنزهة، او ارتياد سينما قريبة أو زيارة إحدى بنات جلدتها العديدات في لندن، ممن يقمن بنفس دورها في البيوت.. أي سخرة خدمتها.

لم ألحظ شيئا غير عادي في تصرف وِني معها يختلف عما كانت عليه في البدء.. ولكن بعد حين، وفي زيارات أخرى لهم إنزعجت كثيرا وأنا أرى التبدل الكبير..

.. بدأت تنهرها، وتتعمد أحيانا ان يكون ذلك أمامنا جميعا، وثابت جالس في الصالة.. بل بدأت أنتبه أنها ترفع صوتها عليها، او تأنبها بشدة أعنف خصوصا حين يكون ثابت حاضراً..

_ ألم أُخبرك، ومرات عديدة، ألا تضعي القدور المغسولة، فوق الصحون!!

_ ألم أُنبهك مرات عديدة إلى وضع قطع الصابون كل في موضعه!.. صابونة المغسلة غير تلك التي لحوض الغسيل!.. هل دماغك الصغير لا يستوعب الفرق بين القطعتين أيتها الغبية.

_ إهمال من جديد!!لماذا لم تكوي جوارب جون السوداء، المخصصة للعمل!!

تنخرط إيلزا بالبكاء غير مرة وتهرب إلى غرفتها..

.. يوجّه جون طويلا نظرة عتاب حزينة صوب وِني.. ينكّس رأسه ويعود لقراءة صحيفته بوجه مهموم.

تتمتم وني، تمتمة تصل إلى آذاننا..

_ ليس لهذه الالمانية الحقيرة إلا مطاردة ثابت المسكين.. ثم تُميل رأسها نحو ثابت وتخزره في شبه اتهام.

يبتسم ثابت إبتسامة غريبة، لم أفهمها في حينه.

.. لم يدم الأمر طويلا على هذا الحال..

.. قامت وني بطرد إيلزا، بعد ان أعطتها أجرة السفر إلى بلدها..

***

مرت عدة أشهر بعد آخر زيارة لي لجون..

.. كان الوقت متاخرا وكنت مترددا في أن أطرق الباب، غير إن موعد عودتي في منتصف تلك الليلة لن يتيح لي فرصة أخرى للزيارة.

إستقبلني جون على غير ما عهدته فيه، ترحاب، ولكنه ترحاب محافظ من وراء وجه متعب كئيب.

.. تبعته الى الصالة.

- سأذهب لأعد الشاي، فقد خرجت وِني لزيارة بعض الأصدقاء ولن تعود إلا في وقت متاخر.

- لا ضرورة للشاي يا جون، فقد تناولته قبل أقل من ساعة عند أحد الأصدقاء، ثم إن قطاري سيغادر بعد ثلاث ساعات.

- اذاً، هل لديك أي مانع في أن نخرج بسيارتي في جولة قصيرة أُوصلك بعدها إلى المحطة.. أحسُ أني مختنق وبحاجة إلى شيء من الهواء النقي.

***

كان المكان الذي ركن فيه جون سيارته عند أحد المتنزهات اللندنية الواسعة والتي تكاد تقفر في ليالي الخريف والشتاء.

أطفأ جون انوار السيارة تماما، وعمّتْ ظلمة بدأت بعد قليل تتلاشى حواشيها من إضاءة خافتة للمتنزه القريب.

وضع جون يداه على المِقود مستندا وسرح ببصره في ضباب الظلمة.. طالت فترة صمته، وجدتني أخشى وأحذرمن خدش ذلك الصمت، حتى ولو بحركة تململ بسيط..

- هل تدري يا صافا إن حياتي قد تقوضت تماما!!

قالها جون بصوت مرتجف وهو لايزال يحدق في المجاهل الضبابية أمامه، وكأنه يحدّث شخصاً آخر غيري.

.. طال صمته ولم أجد غير الانتظار لما يلي ذلك.

***

- " قبل مجيئك كانت حياتنا أنا و وِني رتيبة نمطية وقنوعة في الوقت ذاته، لكنها لم تكن تخلو بالطبع من متع هادئة ومودة وانسجام.

تزوجنا قبل أكثر من عشرين سنة، عن حب وتفاهم، ولم يكن هنالك فارق سن كبيرفقد كنت في التاسعة والعشرين وهي في الحادية والعشرين، وحين يأسنا من الإنجاب، ولم أكن انا السبب في ذلك، من الناحية الطبية، تأقلمتْ وِني مع الوضع بعد وقت، ولم يخلو ذلك من معاناة وصبر وكآبة مع الواقع الجديد.

.. رتّبنا حياتنا وفق واقعنا وكنا سعداء على طريقتنا.. بل وهكذا كان الآخرون يروننا أيضا.

أما عن علاقتنا الجسدية فقد توقفت، ولنقل انتهت منذ خمس سنين، وتاقلمنا دون اي إشكال مع هذا ايضا.

***

جئتَ أنت وبدأت أشياء تتبدل في حياتنا.عزونا ذلك في البدء إلى كسر الروتين الذي كنا قد فرضناه على انفسنا لفترة طويلة، ثم أخذتُ أدرك مع الوقت وبسرعة، أن السبب في الحقيقة يعود إلى توقنا الطويل المكبوت إلى إبن لم يسعدنا الله به، لم أبح بما توصلت إليه لوني، كي لا أُثير شجونها، ولكني واثق من أنها سبقتني في مثل هذا الادراك ولم تصارحني، كي لا تثير شجوني هي أيضا..

.. هل تتابعني يا صديقي؟!، كم تمنيت أن اقول يا ولدي، قال ذلك وهو يلتفت تجاهي لأول مرة منذ بدء حديثه وقد تقطّع صوته بعبرة خانقة.

.. عاد إلى وضعه في مواجهة الظلمة والسرحان في أغوارها وواصل حديثه:

" بعد مغادرتك ومجيء ثابت مكانك استمرت الأوضاع بالضبط كما كانت معك، إلا بفارق صغير، أنه لم يكن على نفس البساطة والإنفتاح الذي كنتَ أنت عليه. كان أكثر صمتاً وهدوء وعزلة، ومع ذلك فقد شاركنا في معظم أماسينا.

بعد العشاء وكنت أدخل معه في هذا الحديث أو ذاك، وإن كانت حواراتنا لا تصل إلى ما كانت تصل إليه معك من الإنفعال والتحدي.

لم تتغير رعايتنا له عن تلك التي منحناها لك إن لم تكن اكثر، وسار كل شيء على مايرام، حتى تلقى نبأ وفاة والده.

كان حزنه كبيرا، وتأثرنا أنا و وني لحزنه واحترمنا ذلك الحزن وخصوصا وِني، التي طالما كانت تحتضنه مواسية، كلما داهمته موجة من البكاء المفاجيء. غير أن أياما كثيرة مرّت وهو على نفس وضعه من العزلة والكآبة، ولقد تحدثت معه مواسياً في احدى المرات، بأن والده قد توفي عن عمر كبير ودون عذاب والم، وكلنا فقدنا وسنفقد احباء لنا وهي مشيئة الحياة، ناهيك عن أنه ترك له وللعائلة ثروة طائلة لعيش رخي.

.. يظل مطرقا صامتا في قاعة الجلوس حتى ساعة متأخرة، وأصعد أنا الى غرفتي لاتهيأ للنوم، وأنت تعلم أن عليّ الخروج إلى عملي في الصباح الباكر.

.. أما وِني فكانت تبقى في الصالة مع لوح تطريزها كي لا يترك ثابت وحيدا لهمومه.

أفقت في إحدى الليالي، وكانت الساعة التي بجانبي تشيرإلى الثانية..

.. كان فراش وِني خاليا.

.. نهضتُ وفتحت باب غرفة نومنا لأجد ان الظلمة تغمر البيت..

.. ضوء صالة الجلوس مطفأ.

لم أكد أصل الى منتصف السلم، حتى تناهت إليّ أصوات خافتة آتية من الصالة المعتمة.

.. بدأ قلبي بالوجيب..

.. غطى ضجيجه في اذني على أيّ صوت آخر..

.. وهنتْ قدماي،غير أني واصلت نزولي ببطء وجسدي يرتعش، والأصوات تزداد وضوحاً وتتمايز عن تأوهات ومناغات ناعمة وحشرجات..

.. عند مدخل الصالة المعتمة، مددت راسي لأجدهما، وتحت ذبالة النورالنافذ من الشارع، يتضاجعان عاريين على سجادة أرضية الصالة.

تراجعت قليلا لأستند بظهري على حائط الممر خشية الإنهيار.

.. .أن افاجئهما وهما بوضعهما هذا، فهذا معناه أن احدنا سيغادر الدار والى الابد.

.. إن اكتشفا وجودي واكتشافي لوضعهما، فهذا سيضعني أمام مجابهة صارمة تغادر بعدها وِني الدار دون عودة.

عدتُ على اطراف أصابعي بذلة وانكسار إلى غرفتنا.

كانت الدموع لا تزال تبلل وجهي في الظلمة، حين صعدت وِني الى سريرها بحذر شديد محاولة تجنب إصدار أيّ صوت مسموع.

صمت جون من جديد وزدت من حذري من إصدار أي صوت أو حركة تخدش هذا الصمت الحزين.

" أنا قد جاوزت الخمسين،.. ويصعب عليّ، إن لم يكن مستحيلا، أن أبدأ من جديد.

إن وِني وكما لاحظت، تكاد أن تكون صلتي الوحيدة للترابط مع العالم الذي احياه.. ليس خوفي الآن ألّا أتأقلم مع الذي حصل، ولا حتى مع استمراره مع ثابت، فهي علاقة عابرة ستنتهي حال مغادرته.. ما يفزعني، وبعد سنين من نسيان العلاقات الجنسية معي او لنقل إغفائها عند وِني، أن يصحو هذا المارد النائم في أعماقها بعد هذه العلاقة ويجرّها نداء الجسد بعيدا عني، وأُترك أنا وحيدا في هذا العالم الموحش. "

***

وضعت معطفي عليّ واللفاع، وأنا أخرج من عنبر العبّارة العلوي إلى السطح.. إتجهت إلى مقدمة السطح وكانت الريح عالية ندية.

حشرت كفيّ في جيبيّ المعطف إتقاءاً للبرد.. هنالك علبة مسطحة كبيرة في الجيب الأيمن ومظروف في الايسر.. أثار ذلك دهشتي.

أخرجت العلبة فاذا هي علبة شوكلاتة كبيرة، أما المظروف فكان مغلقا وغفلا عن أيّ عنوان أو كتابة. عدت إلى ممر العبارة القريب حيث الإنارة أفضل واسترخيت على أحد كراسي الراحة وفتحت المظروف.

.. كانت هنالك ورقة نقدية من فئة الخمسة باونات ورسالة قصيرة:

" عزيزنا صافا!

اننا واثقون، ايها الرحّالة اليافع، أنك ستجد شاطيء الأمان، وانك ستبدأ حياة مثيرة جديدة وتفتح أبواب مستقبل واعد رغم إننا نعرف تماما انك لست من اولئك الذين يركنون الى ركود الاستقرار، إن عاجلا او آجلا ستشتاق إلى مغامرة جديدة وعالم غريب تخوض مجاهله.

احببناك محبة الإبن الذي لم يرزقنا الله به، فلا تنسنا!

إتقِ برد الخريف الرطب حتى عبورك فرنسا ولا تُضعْ حقيبتك التي اضعتها هنا مرتين، فليس كل مكان هو إنكلترا كي تعود الحقيبة اليك. اكتب الينا حال وصولك. وليرعاك الله.. قبلاتنا.

جون و وِني

***

_ كلا يا مام هيلين لا أرغب أبدا في أن أرى (وتمالكت نفسي ان اقول هذه العاهرة).. المرأة العديمة الوفاء.. قلتها بألم بعد تردد قليل وأردفت لم يكن جون – هذا الرجل الطيب – يستحق مثل هذه النهاية.

***

حدثتكَ كثيرا عن كل من حولي، و لديكَ أحاديث اكثر عبر هذه السنين وفي خضمّ عالم صاخب تعيشونه، وأنت صامت، لم لا تحدثني عن حياتك في هذه العشرين سنة الفائتة و عن صحابك.. قل لي مالذي حل بشِلتك التي كانت تحضر إلى هنا وينقلب المطبخ بضجيج الضحكات والأحاديث الساخنة وقرقعة أوعية الطبخ والصحون، فأهرب إلى بيت إبني لاترككم تعبثون على هواكم.. أعود لأجد انكم قد تركتم لي ولوالدتي ماري بعضا من أكلاتكم الغريبة التي أعددتموها.. أتناول معكم شاي المساء.. ولكل من أصحابك نمط وأسلوب في الشكل والحكاية.. أين هم الآن؟!

***

_ عليّ!.. تذكرين هذا الفتى الأبيض الممتليءالصموت غالبا.. هذا الذي كنت أضحك وأنا أروي لك أمامه كيف تصل الطائرة إسبوعيا بقدور الأكلة التي يحبها والتي تعدّها امه..

وضعت العجوز هيلين عويناتها السميكة جانبا وضحكت ملء شدقيها كما قبل عشرين عاما، وكأني أرويها بحضورها أمام صحابي آنذاك.

_ عليٌ هذا يا مام هيلين خبير نفطي له شأنه، ومقاول نفطي أكبر لشيوخ الخليج السمان

، أما فريق الفتى الأسمر الأكثر هدوئا وسرحانا، فقد عاد إلى العراق بعد أن أصبح مهندسا صناعياً له شأن مهم بين الأوساط العلمية والصناعية في بريطانيا، عاد ليحقق حلمه في بناء وطن حضاري متقدم، وساهم في بناء عدد من المشاريع الصناعية الهامة، أثناء ما أُطلق عليه في حينه (الخطة الانفجارية).. إختفى بعدها فجأة في الإنفجارات الظلامية للعصابة الحاكمة، مثلما تفجرت معها كل المشاريع البناءة لتصبح أنقاضا ونفايات نحار في وسيلة ردمها.. غاب فريق ولم يعرف أحد له أثراً.

اما خالد.. خالد الجميل الضحوك أصهب الشعر، الذي يحار بخصلة شعره من جبينه عند حديثه المرح، فقصته تأريخ.. تأريخ أحلام طائر غريب.

.. لنا نحن البشر الذين صهرتنا الحياة وأعادت تركيبنا لواقعها الخشن، لنا أحلامنا الجميلة، فكيف يا ترى هي أحلام طائر غريب غرد!!.. أحلام ربما كان فطريو الغاب القصيّ اللا مكتشف، اقرب اليها منا دعاة الحضارة..

مام هيلين لقد ذبحوا طائر الحلم هذا!!.. ذبحوه!!.. إستغلوا حلمه ليقدمه دجالو السياسة ومحترفوها قربانا لزعاماتهم.

***

"_ الاكل الذي نأكله سياسة " وضع أصابعه الملمومة في فمه وأخرجها.. " الماء الذي نشربه سياسة "، وأشار أديب بانفعال الى شط العرب.. ثم رفع يديه عاليا "الهواء الذي نتنفسه سياسة ".. وأردف بغضب وعيناه في عينيّ ووجهه محتقن:

_ هذا الاكل.. الطعام.. الهواء.. الماء.. كل ماحولنا سياسة.. إصحَ!.. إصح! أنت أيها القادم من قلب السياسة.. من قلب العالم الثائر الجديد من بلد اوكتوبر وماركس.. من الإتحاد السوفياتي العظيم!!

_ بل لعل ذلك هو السبب يا أديب.. خيبة الأمل الكبيرة.. عدتُ لأقدم ما أستطيع من مهنتي، التي فرضها الواجب قبل رغباتي وأحلامي، بعيدا عن مستنقع الإحتراف السياسي.

كان مثل ذلك الحديث، ولا غيره مع أديب، حين نخرج في سويعات من استراحات عمل المقيم في مستشفى البصره الكبير عام ثمانية وستين.

واصل أديب حديثه المنفعل..

_ لكنك لا يمكن ان تقبع في زاوية لا تصل إليها رياح السياسة وسيولها وحرابها.. لقد دخلتُ انا حزب البعث ايمانا في الخمسينات، كان ذلك سياسة، خرجتُ منه بعد مذابح شباط، كان ذلك سياسة ايضا.. حتى لو أنك قررت أن لا تقرب ما يدور في سياسات البلد وأحداثها، فإن ذلك موقف، والموقف من أي حدث في البلد سياسة.. حين رفضتَ أنت قبول سلال فاكهة وخضر مقاول أطعمة المستشفى أثناء دورتك في المراقبة، وأصررت على ذلك رغم وقوف معاون مدير المستشفى إلى جانب المقاول، كان ذلك سياسة.. لا تحاول التخفي وراء صدرية الطبيب لتبتعد عن السياسة.. أنت مثلا طبيب في الطب العدلي، وعليك أن تكتب تقريراً عن سجين عُذب حتى الموت وهو عارٍ الآن في ميتته يفغر فمه وعينيه أمامك على طاولة التشريح العدلي.. كيف ستبتعد عن السياسة في كتابة تقريرك ووفق امانة القسم الطبي.. إصحَ يا رجل! هنالك أسباب أخرى وراء ادعاءك هذا وقد أُعطيك بعض الحق في موقفك هذا!

.. كيف لك أن تسد اذنيك وأخبار حركة التمرد، أو الثورة أو الشغب حسب قول الحاكمين الذين يحاولون اخفاءها!!، تلك الحركة التي يقودها خالد على مبعدة كيلومترات معدودة عن المكان الذي نتحدث فيه الآن.

_ اي حركة واي خالد تعني؟

_ لقد استولوا على عدة مخافر للشرطة في قصبات هناك ووزعت أسلحة المخافر على الثائرين..

_ اي خالد هذا؟

_ اسمه مشاع الآن انه خالد أحمد زكي.. قدِمَ من إنكلترا ليشعل حريق الثورة في قصبها وفشلت محاولات السلطات العديدة في إخمادها..

" خالد الصبي اللعوب الضحوك، ذي الخصلة الصهباء الذي يحار بوضعها من جبهته.. خالد الرجل الصموت السارح بأفكاره بجريدة الدايلي وركر الملفوفة في كفه.. أم خالد الأنيق ببدلته الشمواه في لقائي الاخير معه.

***

دعوته صيف عام خمسة وستين، ودعوت بعض العراقيين بمناسبة قدومه إلى براغ لنجلس في خمارة (اوفليكو) العريقة الشهيرة، ملتقى نابليون وجوزفين قبل معركة الاوسترليتز.

.. خالد العائد من موسكو بعد مهمته كأحد قيادي حركة الشبيبة اليسارية العالمية..

كان غذاء الحديث الدائر وملحه..

_ لقد زعلَ عليّ السوفيات.. قدموا لي دميتهم الخشبية الشهيرة متروشكا) الأُميمة)، وهي عبارة عن دمية لفلاحة روسية مزخرفة، ترفع نصفها العلوي لتخرج من داخل إسطوانة الدمية الكبيرة تلك، دمية اخرى أصغر قليلا، وهذه بدورها تحوي بداخلها دمية أصغر، هكذا حتى تصطف أثنا عشرة دمية الواحدة أصغر من الأخرى..

.. فتحتُ الدمية الكبيرة ورتبت الدمى الأصغر فالأصغر على مائدة الاحتفاء بي، ثم قلت لمسؤولي الشبيبة السوفيات " ايها السادة! إنه إبتكار بارع، إنه أعظم حلّ لازمة السكن لديكم ".. ضحك خالد بصوت عالٍ وهو يردف..

_ إنقلبت السحنات وتجهّمت وجوه المضيفين من حولي..

***

.. دارت علينا الراح في عسجدية، ببيرة افليكو السوداء.

.. عادت بخالد أيامه المرحة وهويحدثنا عن موقعه من فيلسوف ومؤرخ عصره العظيم البريطاني (برتراند رسل):

_ لم أكن سكرتيره الشخصي وحسب كنت صَفِيّ مجالسه حين ينفض عنه الصحفيون ورجال الاعلام، ليركن الى زاوية هادئة من بيته.

.. كان رسل، لا يتناول عشاءه البسيط دون جلوسي إلى جانبه على المائدة.. .استمرت أحاديث خالد الشيقة لما بعد منتصف ليل براغ، لاودعه معانقا ولم أدر أنه وداع الابد ".

لم أبح لأديب عن علاقتي بالثائر المطارد ونحن نتمشى على كورنيش شط العرب.

***

_ خالد الطائر الحالم الغريب الغرد العذب هذا يا مام هيلين، أراد أن يخلّص وطنه من نيره وشوائبه.. أراد أن يرتب عشه الحبيب، فاكلته النسور..

" ستكون الأهوار هي (سيرا مايسترا)، ومثلما زحفت جموع فلاحيه منحدرة كالسيل من جبلها الشهير في كوبا لتنظم اليها جموع الغاضبين والحالمين، ستكون الاهوار منطلق زحف حفاته.. ستسقط قلاع الطغاة واحدة إثر اخرى.. سنجلب لشعبنا المحرر ما رأيناه في بلاد الغرب من صحة وتعليم وتطور صناعي وثقافي وضمان إجتماعي.. نعم (وطنٌ حرٌ وشعبٌ سعيدٌ!)، سنسعى ونحقق، لم لا وغيرنا سعى وحقق. "..

***

ليست (غمكَة) الهور (سيرا مايسترا) يا صاحبي الحالم الجميل، ولا السكان الحفاة الجهلة العراة الغارقين حتى أعناقهم في مجاهل قرونها الحجرية المائية المليئة بالأفاعي والخنازير البرية والاوبئة، هم ثوار امريكا اللاتينية.. ولا قياداتهم، سيمون بوليفار، وكارلوس برستس، وكاسترو، وجيفارا..

.. حلمٌ جميل يا طائري الغرد،.. حلمٌ شاعري صامت.. حلمُ ثورة أعماقك الصاخبة الخفية الصامتة.. أردت أن تطلق دواخلك صرخة ثائرة مجلجلة، لكنك ياطائري لا تجيد إلا الشدو العذب.. أسفي عليك وعليها، ضاع حتى الصوت فيها.. ضاع حتى إنشادك الأخير.. لم يُسمع حتى نداء فم جراحك الدامية.. لم يبق منها إلا همس القلّة المتخفية.. أُخمدتْ حتى ترجيعات الذين عرفوا نشيد موتك.. .. ضاع حتى الصدى في بلاد لاتعرف إلا كواتم الصوت.

وذُبح خالد يا مام هيلين!!.. تُرك في الميدان وحيدا، تخلى عنه من وعده بقواعد جماهيرهم وسلاحها.. زعامات الكفاح المسلح الخزيانة تلك.

.. وشوا به.. خاض المعركة الأخيرة رغم ذلك وحيدا في ميدانها في وحل القصب وأفاعيه.. قاتل حتى النفس الأخير رغم علمه بالوشاية والتخلي والمعركة الخاسرة.

***

صمتتْ مام هيلين.. صمتُ العجوز الخاشع، رغم بُعد الحدث وصاحبه عنها.

_ صحيح إنه bloody middle east.. وضعت عويناتها السميكة، واتجهت إلى المطبخ.. من هناك سمعت صوتها

_ هل ترغب بفنجان قهوة آخر معي؟..

_ حبذا يا أمي.

عادت بصينية صغيرة وفنجاني قهوة، وكان معها مظروف كبير قدّمته اليّ

_ بما إنك طبيب اشعة، إطلع على رقوق فحص معدتي.

نظرتُ الى الرقوق عبر ضوء النافذة وانا في مقعدي بجوارها..

لم اعلّق بشيء للحظات.. يبدو انها قرأتْ ملامح وجهي..

_ لا عليك يا صافا!.. أنا أعرف أن لديّ سرطان معدة متقدم.. لقد رفضتُ العملية المقترحة، وأعرف ما بعدها من رقود المستشفيات مضني، وعلاج كيماوي وآثاره.. فضّلتُ أن أعيش البقية الباقية كما أرغب.. لقد قدّرها الاطباء بستة أشهر.

.. سأذهب لأقضي هذه المدة الباقية في بيت أختي الصغرى التي تعيش في بيت قريب من البحر بمدينة بورتسموث.

نطقت عبارتها تلك وكأنها تخطط لسياحة العمر التي كانت تنتظرها طويلا.

***

إبتدأت جولاتي التي قدمتُ أساسا من أجلها الى لندن..

راجعتُ مع بدء افتتاح الدوائر مكتب العمل الرئيسي.. قابلت إحدى موظفاته.

.. سألتني عن مؤهلاتي فعددت الأشغال التي مارستها مضيفا إلى ذلك أني طالب جامعي في فرع الهندسة..

شرحتْ لي الوضع الصعب في إيجاد الأعمال عموما مع تقاطر جيش طويل من العاطلين اليهم، وخصوصا ممن لا خبرات سابقة لهم في أعمال المكننة والتكنولوجيا الجديدة المطلوبة في سوق العمل.

_ ما الحل سيدتي لقد أرهقتني الحاجة، ولست سائلا إلا عن أعمال طارئة، أو ساعات محدودة اسبوعيا.. أيّ شيء!.. أيّ شيء!

_ سأبذل جهدي، وقد تكون محظوظا فلم تبدء العطلة الدراسية بعد، حين يفد عشرات الالآف من أمثالك من الجامعيين، أو اولئك الذين أنهوا مراحل الدراسة الثانوية أو حتى المتوسطة.

.. بدأتْ بالبحث بين بطاقات مرتبة وفق الأعمال في أدراج طويلة أمامها.. أخرجت بطاقتين وكتبت تحويلاً وقدمتهما لي لاراجعهما.

.. كان الأول محل لصنع البوابات وكتائب النوافذ الحديدية يطلب عاملا بدوام كامل.. أربعة واربعون ساعة في الاسبوع.. كان الثاني مؤسسة النقل تطلب قاطع تذاكر للباصات لساعات محددة في الإسبوع.

شكرتها وغادرت المكتب، وسارعت دون تفكير طويل إلى محل الحدادة، فدوام كامل يعني ساعات عمل أسبوعية أكثر وهذا يعني أجراً إسبوعيا أكبر.

إهتديت إلى العنوان في أحد المناطق الصناعية من العاصمة.

كان المحل عبارة عن دكان واسع، إنارته خافتة.. خيّل لي من الوهلة الأولي أن لا أحد هناك لاطلعه على قدومي..

.. دخلت المكان وأنا أتلمّس طريقي بين أكوام القضبان الحديدية والألواح والصفائح وبعضاً من بوابات صغيرة وإطارات شبابيك حديدية..

من نصف العتمة على يميني سمعت صوتا يسأل بخفوت:

_ ماالذي تريده أيها السيد؟

كان ذلك صوت رجل بملابس عمل ثقيلة يستلقي مسترخيا على كرسي استراحة.

" لابد انه رب العمل يستريح لفترة من إنجاز مهمة له.. "

_ جئت من مكتب العمل بشأن العامل الذي طلبته.

_ هل لك خبرة في اللِحام.

_ نعم.

دون ان يطيل في السؤال والجواب..

_ أليكَ إذاً بقضيبيّ الحديد هناك قمْ بلحامهما! وأشار إلى قضيبين يعلوهما الصدأ.

شاهدت بضع مرات دكان حدادة وأنا أجتاز الزقاق الذي يقع في نهايته بيت اختي الكبيرة في الدباش..

".. لابد إنه هذا!!.. هذا هو جهاز اللحام الكهربائي لاغيره.. ".

تناولت الجهاز المرمي على الأرض قرب طاولة اللحام.

وضعت نهايتي القضيبين الحديدين على طاولة العمل المعدنية الطويلة.. .. تأكدت من تلامس النهايتين للقضيبين، وأنا أتصنّع التملّي فيهما كمحترف للصنعة، ثم أمسكت جهاز اللحام الكهربائي الثقيل.. تأكدت من تماس ذؤابة جهاز اللِحام من خط تماس القضيبين..

كل ذلك وعينيّ مصوبتان بثقة بالغة وإحكام وعن قرب إلى موقع اللحام المرتقب.

.. ضغطت على زرّ جهاز اللحام..

.. إنفجر ضوء باهر متلامع وصوت مفرقع، وتطاير شرر ودخان كثيف

.. إختضّ بدني كله في هزّة قصيرة عنيفة وانقذفت ذراعي إلى الخارج لترمي عنها بعيداً الجهاز اللاسع.

_ هل أنت بخير أيها الفتى؟.. هل عيناك بخير؟، لم يصبهما الشرر.. الظلمة العاتمة فيهما وقتيه، إنها من ضوء اللِحام الباهر، لقد كنتُ أرقبك، وكان عليّ أن أُعطيك درساً كي لا تدّعي لاحقا أشياء لا تعرفها.. كان جهاز اللحام الذي حملته يرتبط به سلك اخضر يتدلى منه، عليك ربط السلك (الأرضي) هذا أولاً بعمود الطاولة المثبتة إلى الأرض، وأن تمسك بالقناع الواقي للشرر والضوء وتضعه على وجهك.. إنه مرمي جنبك على الارض، كان سيحمي عينيك من الضوء الباهر والشرر الذي قد يصيبهما بضرر دائم.. . لعن الله مكتب العمل الذي يعذبنا بأمثالك.. سأكتب لهم شاتما..

.. تراجع العمى الوقتي تدريجيا وبدأت أُميّز الأشياء من حولي من جديد.

وانا اغادر المكان بصمت وانكسار سمعت صوته من ورائي:

_ إحمد ربك ايها الصبي أنك لم تصب بعاهة.

إتجهت إلى أقرب مقهى، جلست أتناول كوبا دافئا وأنتظر تراجع آثار التجربة التي هزت كياني وأستعيد بعضا من هدوئي " الى متى وأنت تجرب المحذور تريد اكتشاف سره.. تقتحم بغباء وعمى مجاهل لست مقتدرا عليها! "

***

.. مرت ساعة قبل أن أستعيد بعضا من شجاعتي وثقتي لأتوجه إلى العنوان الثاني من مكتب العمل.

بناية ضخمة من عدة أدوار..

.. أطلعتُ موظفة الإستعلامات في المدخل الفخم على تحويل مكتب العمل للوظيفة المطلوب شغلها.

.. في الطابق الرابع، وعند صالة إنتظار مراجعيه ذات الاثاث الفاخر والسجاد المناسب، كان هنالك مكتب استعلامات خاص به كتب عليه: (مكتب الباصات وعامليها).

أطلعتُ موظفته على تحويل مكتب العمل أيضا.. طلبتْ مني الإنتظار.

_ هل أنتم بحاجة الى قاطعي تذاكر؟ سالتها بلطف.

_ بأمس الحاجة للعديد منهم!، الكثيرون يتركون العمل المرهق، إلى أعمال أقل جهدا وأكثر اجرا.. إنتظر هناك!.. انه العمل المناسب للطلاب في عطلتهم.. أنت طالب كما اعتقد؟

_ هو ذلك آنستي.. شكراً على الأمل.

بعد انتظار غير قليل، أتى دوري.

الممر المؤدي إلى غرفة مدير الشعبة، مفروش بالسجاد الأحمر، نجفات انارة حديثة، وجدران بنقوش وألوان هادئة.

._ إدخلْ! صوت من الداخل بعد أن طرقت الباب برقة.

كان المديركهل أنيق، قصير القامة، يكاد يضيع وراء مكتبه الماهجوني الضخم، باحثا في الأدراج وملفات منثورة بين عدد من الهواتف فوق المكتب..

تقدمت ولم أعرف هل أقترب كثيرا من الطاولة الضخمة، أم اظل بعيدا بعض الشيء عنها.. إخترت الثانية تأدباً.

وقفتُ صامتا في مكاني لا اريد أن اقطع عليه انشغاله وهو يناوب في بحثه بين الأدراج وبين ملفات المكتب.

.. طال انتظاري بضع دقائق طويلة..

.. أخذت أشعر ببعض الإنزعاج.

.. أحسست ببعض المهانة.

.. واضح انه يتعمد اذلالي!..

قررتْ!.

.. إلتفتُ جانبا.. تحركتُ مغيّراً مكاني.. إقتربت من لوحات مائية معلقة.. كانت جميلة حقا.. أخذت أتمعّن في تفاصيلها وكأني في قاعة عرض، وأُلقي نظرة عابرة بطرف عيني على سيادة المدير.. هو لايزال يتشاغل عني.

_ good morning sir.. you have beautiful aquarelle paintings اسعدت صباحا ايها السيد، عندك لوحات رسم مائية جميلة!

_ What you said ما الذي قلته؟أجاب المدير ببرود وعدم اهتمام وبوجه غير راض.

_ جئتُ بصدد عامل قطع التذاكر في الباصات الذي طلبتموه من مكتب العمل.

_ لقد أخذ الوظيفة غيرك للأسف. قالها وهو مستمر في البحث من الأدراج

_ وذاك بالضبط ما أردت معرفته أنا ايضا مستر.. شكرا.

إستدرتُ وخرجت.

" لاذهب إلى سكني الجديد أستريح من هذا اليوم عاثر الحظ! "

***

كانت علاقتي بخالد وبالآخرين من رفقة لندن السابقة قد إنقطعت بين ضياع المدن والمعاهد والاعمال. سألت علياً عنه وعن فريق وهيثم، بعد ان زرته في كليته التي تم قبوله بها بعد ايام لقاءاتنا السابقة (هو وفريق وهيثم طلبة بعثة حكومية). أخبرني ان الدراسة ومشاغل اخرى قد حالت بينه وبين لقاءات أخرى معهم منذ زمن طويل، وان أخباره قد انقطعتْ.. يعرف ان فريق يدرس في جامعة مانشستر وان هيثم يدرس الهندسة المدنية في إحدى كليات لندن، لم يطل لقاءنا في مطعم كلية علي وغادرته حتى دون ان يُلمّح الى لقاء آخر معي.

***

تواصلت زياراتي لمكتب العمل، وكاد صبر موظفة المكتب أن ينفذ فتخبرني بأن لا اكرر مراجعتها بين يوم وآخر..

.. تنظر اليّ من تحت عويناتها حين أجلس بصمت امامها.. تبحث في ادراج البطاقات.. تخرج واحدة او إثنتين وتكتب تحويل الدائرة والعنوان.. وتعقّب احيانا " حظا سعيدا "، او تتشاغل بالادراج والاوراق على منضدتها حين أستعد للمغادرة..

.. معمل للحفر الآلي على النحاس.. أفشل في تجربة حفر قطعة معدنية صغيرة لإسم طويل باحرف رومانية.. معمل للأحذية أُصرف من باب مسؤول عمله بتهذيب.. عامل تحميل في مصنع للزجاج " العمل يحتاج إلى رجال اقوياء بعضل ".. مساعد بار في حانة شعبية (خلقتي وهيئتي لا تعجب صاحب الحانة)..،.. ،..

.. أدور بنفس كسيرة ومزاج سوداوي طوال نهارات عديدة، بدأتْ مدخراتي الشحيحة توشك على النضوب مرة أخرى..

.. أنتقل من غرفتي في الجنوب، إلى ارخص أحياء المدينة في شرقها.. انه حي اليهود.. أجد غرفة خانقة في بيت كئيب نصف أظلم في زقاق مليء بقطع أثاث عتيق مكسّر وبراميل وصناديق كارتونية وقطط سائبة.

ربة البيت إمرأة عجوز جاوزت منتصف الثمانينات.

الغرفة في الدور الأول بنافذة ضيقة على الزقاق الموحش، شبه جرداء إلا من سرير إنفرادي وخزانة ملابس متقادمة، كرسي وطاولة صغيرة دون غطاء.

الحمام: مغسلة ذات حوض صغير بصنبور واحد للماء البارد، مرحاض ووعاء نحاسي كبير للإغتسال.. تدفع أُجور ملئه بالماء الساخن كلما أردت الإستحمام.

غسيل الملابس وكيّها إن احتجت ؛ خارج البيت، في لونداري المحلة القريب.

.. أجرة الغرفة باونا واحداً فقط في الإسبوع تدفع مقدما كل يوم سبت.

تعوّدت بسرعة على برد ورطوبة المكان وسعال ربة البيت شبه المستمر في غرفتها المجاورة في الليل.

.. لكن مع هذا المكان البائس، كان الحظ السعيد بانتظاري.

تذكرت أن معمل البيرة الذي كان خالد يعمل فيه قريب من هذه الضواحي.. قمت بزيارته.

لم تطل مقابلتي لمسؤول العمال هناك..

_ متى يمكنك أن تبدء العمل؟

_ فوراً لو اردتْ. أجبت على عجل.

_ تعال هنا غدا في الثامنة صباحا وسأطلعك على سير العمل.. الدوام الصباحي يبدء في االسادسة، العمل هنا مناوبة، وهناك نوبات عمل الزامية ليلية للرجال، أجرتها مضاعفة بالطبع.

كان عملي تحميل صناديق قناني البيرة المليئة الى الشاحنات، وتفريغ شاحنات أخرى راجعة مع صناديق القناني الفارغة.

***

معي في قطاع العمل هذا، أربع نساء يشتغلن على شريط تنظيف القناني وشريط تعبئتها ثم وضعها في الصناديق المعدّة الى جانبهن.. ثلاثة ممن تجاوزن الأربعينات ورابعتهن، غادة حسناء في منتصف العشرينات ممتلئة للحد الذي لا تتمناه إلا كل امرأة ورجل ملهوفين للجنس.. نعم تضع نفس ملابس العمل البسيطة، ولكن لا غنى عن تلك القلائد والأسورة الكاريبية الطويلة وحلقتيّ القرطين الواسعين.. تجيد مكياج وجهها كما لا تجيده أجمل حسناوات هوليوود.. خصوصا حول العينين الواسعتين العسليتين الخبيرتين بتصويبهما القاتل.

.. نجلس خمستنا سوية لتناول الشاي في فواصل العمل وأثناء الغداء..

بدأت جورجينا لعبتها معي، أحيانا بنصف مزاح وأخرى بتنويه صريح جاد، بين فكاهة تحكيها ورواية أحلام استيقظت عليها عند الفجر، او شائعة عن علاقة جنسية مثيرة لجارتها في السكن.. محدّثة بارعة تعرف كيف تسترعي آذان الجالسين وانتباههم..

_.. ورأيتك بجانبي يا صافا ونحن عاريين نتصارع لاهثيَن ضاحكيَن سابحيَن بعرقنا نمارس الجنس في الفراش الوثير.. ويا للخيبة حين صحوت عند الفجر ولم أجدك إلى جانبي.. متى تحققْ لي حلمي يا حبيبي؟!.. تنظر إليّ بشبه توسل ثم تبتسم وتميل علي قارصةً خدي بلطف..

_ تعالي لننهض الآن.. هنالك زوايا كثيرة مظلمة خاوية في المعمل.. حُلم الليل ننجزه في النهار..

تضحك النسوة الجالساتْ.. تنظر إليّ بعتاب مسرحي متقن..

_ أهكذا تستهين بحبي وشوقي إليك في صحوي وفي أحلامي..

رغم أني كنت أُدرك تماما أنها تمثل دوراً تبرع فيه، بين مزاح، وبين إيقاع غرّير جديد في شباكها.. صيادة ماهرة!.. قطة تلعب بفيرانها قبل أن تلتهمهم..

.. أعرف أن لها صديقا ثابتا، رجل ضخم وسيم يعمل مسؤولاً لادارة الشؤون العمالية في مصنع الأجهزة الكهربائية القريب.

.. رغم علمي بكل هذه الدعابات والأدوار المسرحية، فقد كانت تلهب عليّ لياليّ الجافة المتوحدة.

***

ينتهي العمل الصباحي في الساعة الرابعة، وبعد عدة أيام بدأت العمل بساعت إضافية حتى السادسة، تمتد أحيانا إلى الثامنة ليلا.. كانت كل عضلة ومفصل وعظمة في جسدي تأنّ بالوجع الممض، مع صعوبة التقلّب في الفراش في الليل في الأيام الأولى.. آتي فالقي بنفسي فوق السرير بملابسي دون أن ألحق لأبدلها، فأغفو لساعتين أو ثلاث وأصحو على جوع شديد.

شيئا فشيئا خفّت آلآمي وانتظم نومي..

إستلمت أجور ساعات عملي الأسبوعية.. كانت أعلى أجر أحصل عليه في بريطانيا.. سبعة باونات وعشرة شلنات وستة بنسات.

ضمن ما حملتُ من بضائع غذائية لطعامي في البيت، حملت كيساً من الفواكه وباقة ورد لربة البيت الهرمة.

***

لم أستلم ردا من عدد من كليات ومعاهد الهندسة والتصميم المعماريين، التي راسلتها.. أو اني جوبهت بالرفض في رسائل أخرى..

كان الوقت قد تأخر كثيرا على التقديم إلى الدراسات الجامعية..

" لن اخسر شيئا لو أني قمت بمحاولة لمقابلة شخصية لبعضها في لندن على الاقل "

نجحت في الحصول على موعد مع مسؤولي التقديم في كلية (لندن بوليتكنيك – قسم الهندسة المعمارية).. حملت مالديّ من وثائق وحافظة كبيرة للوحاتي المائية وألوان الباستيل..

لم يكن اهتمامهم كبيرا بالوثائق الدراسية، قدر اهتمامهم باللوحات والرسوم المقدمة..

عرضتها على اللجنة الثلاثية، لوحة فلوحة وتخطيطا وراء تخطيط..

لم يعطوا اي رأيّ في ايّ منها.. أخبروني بانهم سيرسلون ردهم على عنواني البريدي بعد أيام.

.. كان الرد برفض القبول في الكلية.

لم أتأثر كثيرا، فقد كانت حركة يائسة مني لاغير.

كان موعدي الآخر الذي حصلت عليه في اليوم التالي.

توجهت إلى منطقة (هامرسمث) معقل الفنانين في لندن.. معهد هامرسمث للفنون.

قابلني رجل نحيف طويل القامة بلحية ذقن صغيرة سوداء يخطها الشيب، بوجه سمح مستبشر.

إعتذرتُ عن تأخّري الكبير في التقديم، ولم يكن ذلك إلا لظروف قاهرة.

.. في غرفة عمادة المعهد المزدانة بلوحات عديدة ذات اساليب مختلفة، أطلعته على أعمالي البسيطة واحدة بعد اخرى، توقف قليلا عند البعض، وبشكل سريع عند الاخريات..

.. قام من وراء طاولته العريضة، وأشار إليّ أن أتبعه..

في الصالة الكبيرة التي مررنا بها كان هنالك عدد غير قليل من الطلبة، البعض في حوار هاديء والبعض الآخر يتملّى بعض الأعمال الفنية المعلقة على حائط الصالة.. سمعت حديثا باللهجة العراقية، التفتُ لأجد ثلاثة شبان يتناقشون بحرارة وانفعال، عاد انتباهي إلى سير عميد المعهد أمامي..

_ أريد منك يا ريتا تسجيل هذا الطالب لدينا للسنة الاتية!..

_ كما ترغب مستر نانتنجيل.

غادر منصة غرفة التسجيل دون أية كلمة اخرى.

لم تمر عليّ لحظة مثلها من قبل.. كدت أقفز من فوق منصة التسجيل وأحتضن ريتا وأُقبّلها، بل وأُقبّل الموظفات الثلاث معها في الغرفة، أو أعود راكضاً فأحتضن مستر نايتنجيل واقبّله..

.. بعد ان أعطيت ريتا جواز سفري وبعض الوثائق الدراسية، عادت بعد عشر دقائق تقريبا لتعطيني ورقة القبول وموعدها الدراسي.

عدت الى غرفة مستر نانتنجيل لأشكره، فلم أستطع فقد كان يرأس اجتماعاً لأساتذة المعهد.

.. وجدتُ في الصالة صحبي المقبلين من الطلبة العراقيين الذين سبقوني في الدراسة في المعهد، وأطلعتهم على تفاصيل قبولي معهم.. فرِحوا.

_ مستر نانتنجيل، فنان جميل.. إنه عسل.. علّق أحد الثلاثة.

***

بدأت عملية الحسابات..

" ساعات دوام الكلية!.. ساعات المواصلات وأوقات الراحة القليلة بعدها..

.. كم يتبقى من الوقت لعمل مسائي – ليلي يسمح بنوم في البيت لا في مدارج المحاضرات؟! كم ساعة للدوام المؤقت، للعمل المرهق الراهن الذي أقوم به يمكن الحصول عليها؟!.. أجر هذه الساعات؟!.. ؟!..

.. يُطرح مما يمكن إستحصاله هذا، لو استطعت فعلا أن أحصل على فرصة هذه الساعات، دون عائق أو مرض أو إستغناء عن خدمات الفائضين عن إحتياج المعمل.. "

".. يطرح من حصيلة هذه الساعات!! (_)

أجرة الغرفة + غاز التدفئة + إستخدام المطبخ + ملء وعاء الإغتسال النحاسي بالماء الساخن للإستحمام + أجرة غسيل الملابس وكيّها في اللوندري + كلفة مواد الطعام المتناول في البيت مهما قتّر الإنسان فيها + أجور الكورسات الدراسية + أجور الكتب ومعدّات الرسم ومواده +أجور المواصلات + ثمن غداء مطعم الكلية (لو وجد) أو مطعم رخيص مجاوور + ثمن حذاء وجوارب بديلا عن آخر مثقوب أومستهلك + " ليس بالخبز وحده يعيش الانسان " تذكرة سينما او مسرح او معرض فني، او اسطوانة جديدة لجيلي. ".

.. تضاءل الفرح العارم الذي غمرني فترة غير قليلة ليتحوّل إلى ومضات أمل تبرق حينا ثم تخبو.

سألت مسؤول عملي في المصنع وهو رجل كيس ومتفهم..

_ أنت تعرف إننا لا يمكن أن نتجاوز الحدود في ساعات العمل المؤقت ومواعيدها، ولكن أقصى ما يمكن ان أعدك به هي تلك الساعات الأربع التي أنت تشتغلها الآن في أكثر الأحيان.. وربما.. ربما نتمكن من إتاحة ساعات أكثر يوميّ السبت والأحد.. في أحسن الاحوال لن تكون حتى مقاربة لنصف ساعات عملك الحالي..

حسبتها في الحال في ذهني = ثلاثة باونات إسبوعيا في أحسن الأحوال.

أحسست وكأني تقلصت مثل بالون مثقوب.

شكرته وجلست أُعيد حساباتي بسرعة.. لا أكاد انتهي من جمعها وطرحها حتى أُعيدها مرة أخرى من بدايتها.

***

لا اؤمن بالمعجزات، لا الغيبية منها ولا الدنيوية..

لا معجزة الشيخ الكريم بلاسم ليقدِم كالملاك الحارس ليقدّم هدية اخرى، ولا أن أكسب اليانصيب، ولا حتى أن احصل على تعويض مجزٍ لحافلة تدهسني دون عوق دائم..

لقد تخليتُ عن مدّ يدي الى الأهل بعد بضعة أشهر من قدومي، ولن أعيد ذلك حتى لو سغبت، أو نابتني النوائب.. هذا وهم هناك في بلدهم، فكيف وهم الآن شبه لاجئين في بلد، لا اقول غريبا، ولكنه بلد آخر غير بلدهم.

.. القبول وضعته في جيب سترتي، أحمله فرِحاً ومفتخراً به.. يكفيني هذا الآن، ولديّ عمل يمنع عني الجوع والبرد وحاجة الآخرين، وللغد ربّ يرعاه.. وأنا أرعاه أيضاً.

***

وصلتني رسالة مؤثرة من والدي، خلاصتها أنهم في دمشق وأوضاعهم مستقرة وطيبة من جميع النواحي.

لقد وصل إلى علمه أنني أواجه كثيرا من الصعوبات في حياتي التي اخترتها بعد أن تركت دراستي في كلية الطب في بغداد.. كان ولا يزال يعجب لقراري ذاك، وأن في دمشق كلية طب في جامعتها العريقة، وهو بلد عربي نحبه ونحب اهله الكرماء..

.. وبكلمات تقرب الرجاء أن عُدْ إلينا، وإلى دمشق الجميلة، وكلية الطب.. الخطوة الاولى لمسيرة العمل الإنساني الذي أعرف أنك من السالكين لدربه.. ثم تنتهي الرسالة:

" اخبرني يا صفاء ماهي تكاليف السفر التي تحتاجها لأبعث بها اليك."

***

سقطتْ كل الحسابات والأرقام التي كانت تحرمني النوم في ليلي وتقلقني طوال نهاري أمام هذه الرسالة.

أجبت باختصار شديد بعيدا عن أية تأثيرات عاطفية لا موجب لها، خلاصتها إني عائد قريبا، ولا حاجة لأيّ دعم نقدي لتكاليف سفري الطويل اليكم، لأنها بحوزتي (لم يكن ذلك صحيحا بالطبع!).

كان عليّ أن أُقتّر في كل مصروف وأن أُزيد من ساعات عملي في تحميل الشاحنات بالصناديق الثقيلة، لأعود فازدرد لقمة كي لا أصحو على الجوع في الساعت القليلة التي كنت أرقد فيها على السرير، وغالبا بملابسي الكاملة.

بعد بضعة أسابيع كان لدي ما يكفي للسفر On Deck فوق سطح السفينة تحت خيمة الله الزرقاء، السوداء بثقوبها اللامعة، او تحت غيثه.

***

ركبت القطار ليلا لأصل الى مورين عند الفجر ولنستقل قطاراً آخر الى دارام، وعلى احد التلال التي كنا نستلقي عليها وسط الغابة المحيطة مسحتُ سيل عينيها وأنفها وقبّلتُ قطرات عسل النمش المالح الذي بان بشكل أوضح في وجهها المحتقن المحمر، واعداً إياها بدعوة ولقاء قريب في دمشق.

حزمت نفس حقيبة الشيخ الكريم التي أضعتها في يوم واحد مرتين،

وزرت مام هيلين وبكيتُ وانا احتضنها بحرارة، ثم العجوزين الوادعين جاك ومارثا.. أخيراً حملتُ حقيبتي في المساء وتوجهت إلى بيت جون ووني.

لندن – ٢٥ كانون الاول ٢٠٢١

***

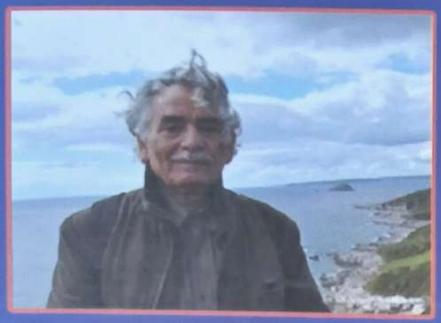

حُلمُ طائرٍ غَريب

.. حُلمٌ جميل يا طائري الغَرِد ..حُلمٌ شاعري صامتْ .. حُلمُ ثورة أعماقكِ الصاخبة الخفيّة الصامتة .. أردتَ أن تُطلق دواخلكَ صرخةً ثائرةً مُجلجلةْ ، لكنكَ ياطائري لا تُجيدُ إلا الشَدوّ العذِبْ .. أسفي عليكْ وعَليها، ضاعَ حتى الصوتُ فيها..ضاعَ حتى إنشادكَ الأخيرْ .. لم يُسمعْ حتى نِداءُ فمِ جِراحكَ الداميةْ .. لم يبق منها إلا هَمسُ القلّةِ المتخفّيةْ.. اُخمدتْ حتى تَرجيعاتُ الذين عرفوأ نَشيدَ مَوتكْ ....ضاعَ حتى الصَدى في بلادٍ لاتعرفُ إلا كَواتمَ الصوتْ .

ISBN 978-9922-628-65-3
9 789922 628653

سطور
للنشر والتوزيع

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790